في رحاب القداسة (٢)

شرح الأربعون المكية

جمعها وشرحها

د . طلال بن محمد أبو النور

عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى

الأربعون المكية

جمعها وشرحها

د. طلال بن محمد أبو النور

المشرف العام على مشروع تعظيم البلد الحرام

ح جمعية مراكز الأحياء بمنطقة مكة المكرمة، ١٤٣٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أبو النور، طلال محمد

شرح الأربعون المكية. / طلال محمد أبو النور ـ مكة المكرمة، ١٤٣٢هـ

٢١١ص؛ ..سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٢٣٧-٠-٨

١- **الحديث** - شرح ٢- فضائل مكة المكرمة أ. العنوان

ديوي ٢٣٧،٧ ١٤٣٢/٣٩٦١

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٣٩٦١

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٢٣٧-٠-٨

الطبعة الثانية

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

جمعية مراكز الأحياء - مكة المكرمة



مكة المكرمة - الخالدية (٢) - ص.ب: ٥٧٥٧١ -

هاتف: ٢٥٣٩٠١٠١ ٠٠٩٦٦ - فاكس: ٢٥٣٩٠٢٠٢ ٠٠٩٦٦

www.makkah.org.sa


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيّنا محمّد الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين،،

أمّا بعد؛ فقد اقتضت حكمة الله عزّ وجلّ أن يُفاضل بين الأمم والأجناس، وبين الأزمنة والأمكنة، ورتّب على ذلك سننًا وأحكامًا.

ومن الأمكنة التي فازت بالحظ الأوفر من الفضل والعظمة: أم القرى (مكة المكرمة)، ففيها أول بيتٍ وُضِع للناس لعبادة الله سبحانه فكان أوّل معهدٍ للتوحيد، وهي قبلة المسلمين أحياءً وأمواتًا، إنّها منبع الوحي، ومهد الرسالة، ومنشأ الإسلام، ولا يجهل فضل مكانتها أحد من المسلمين.

وقد جاءت آيات الذكر الحكيم، وسنة الرسول الكريم صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تشير إلى مزاياها، وتعدِّدُ فضائلَها.

وكنتُ قد جمعتُ مع انطلاقة مشروع تعظيم البلد الحرام الذي تبنته جمعية مراكز الأحياء فرع مكة المكرمة، أربعين حديثًا من أحاديث النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فضل هذه البلدة المباركة، والأحكام الخاصة بها، وسمَّيتها بـ (الأربعون المكية).

ثم رأيتُ أن أضع عليه شرحًا موجزًا، حرصتُ فيه على سهولة

العبارة، ووضوح المعنى، وجعلتُه على النحو التالي:

١- مقدمة (تمهِّد للمعنى العام للحديث).

٢- غريب الحديث (شرحتُ فيه غريب ألفاظ الحديث).

٣- كلمة الحديث (بينتُ فيه المعنى الإجمالي للحديث).

٤- فوائد الحديث (عددتُ فيه الفوائد المستنبطة من الحديث).

٥- تطبيقات عملية (اخترتُ لها أنموذجًا تطبيقيًا أو أكثر من عمل السلف الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ في المعنى العام للحديث).

وقد أردتُه بهذا اليسر؛ حتى يكون سهل التناول لأكثر شرائح المجتمع، فتصنع منه الأسرة مائدةً تربويةً لأفرادها، ويفتتح به الإمام مجلسَ ذكرٍ في جماعة مسجده، وتجد فيه المدرسة افتتاحيةً لإذاعتها الصباحية، ويكون زادًا للمسافر، وأنسًا للمقيم.

وأرجو أن يكون في هذا الشرح إتمامًا لما كنتُ أردتُه بجمع هذه الأحاديث الأربعين، إسهامًا في تعظيم بلد الله الحرام الذي - هو من ملّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ -، ودافعًا قويًّا للصالحين من أفراد الأمة - وبخاصّة أهل الحرم - للمحافظة على قدسية هذا المكان المبارك، وزاجرًا لمن لا يرعى حرمتها وأمنها.

واللهَ تعالى أسأل أن ينفعني به يوم ألقاه، وأن يحشرني في صحبة الخليلين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ باني البيت ومطهّره، ورسول الله محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مطهّر البيت، ومحقّق مقصود بنائه ووجوده، ،

وكتبه

د. طلال بن محمد أبو النور

المشرف العام على مشروع تعظيم البلد الحرام

(١)

أول مسجد في الأرض

حينما ترك إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ زوجه هاجرَ وابنه إسماعيل بوادٍ غير ذي زرعٍ، وظل يتردد عليهما بين فترة وأخرى. وفي إحدى زياراته قال مخاطبًا ابنه إسماعيل: «**يا بُني، إنَّ الله أمرني أن أبنيَ في هذا الموضع بيتًا لعبادته وإقامة ذكره**». وطلب من ابنه معاونته، فجعل يأتيه بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى أتمَّ الله لهما بناء البيت[1].

وبهذا قام المسجد الحرام أول مسجد وضع في الأرض.

عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قلتُ: يا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيُّ مسجدٍ وُضِعَ في الأرض أوّلَ؟ قال: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ». قال: قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «الْمَسْجِدُ الأَقْصَى». قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ، فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ»[2].

[راوي الحديث] أبو ذر الغفاريّ اسمه: جندب بن جنادة، تقدم إسلامه، وتأخرت هجرته. قدم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة فصحبه إلى أن مات، توفي في خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة ٣٢ [3].

[كلمة الحديث] في الأوليَّة شرفٌ وفضلٌ ليس لمن جاء بعده، ولهذا كان السؤال عن أول مسجد وُضِع في الأرض للعبادة، فأفاد النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه المسجد الحرام، ويليه المسجد الأقصى في البناء لا في الشرف والمنزلة، فإنّ مسجده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشرف منه منزلةً، وفي ذكر الصلاة بعد تتمة الإجابة عن السؤال: بيانٌ أنَّ أعظم الغايات التي بُنيت من أجلها المساجد هي الصلاة.

وفي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ، فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ**»؛ إفادة إلى أولية مهمة لا ينبغي أن تعزبَ عن المؤمن، وهي أولية خاصَّة سمَّاها بعض العلماء بعبودية الوقت[4]، يعني: أنّ الفضلَ في سوى هذه المساجد الثلاثة تتعلق بأول الوقت، لا بالمكان.

[فوائد الحديث] وهذا الحديث يحمل فوائد عدَّة، منها:

١- المسجد الحرام أول بيت وضع لعبادة الله تعالى في الأرض، ثم يليه بيت المقدس.

٢- الأرض كلها مسجد تصح الصلاة فيها، إلا ما استثناه الدليل.

٣- فضيلة الأمة المحمدية؛ حيث جُعلت لها الأرض كلها مسجداً، بخلاف الأمم السابقة، فلا يصلّون إلا في أماكن مخصوصة.

٤- عظم قدر الصلاة، حيث فضيلة المحافظة على أدائها في أوَّل وقتها[٥].

[تطبيقات عملية] وقد اعتنى الناسُ بهذا البيت مذ وُجد: يعظمونه ويجلونه، ويصلحون ما تقادم منه، وتوالت الإصلاحات فيه ما بين مُجَدِّدٍ لبنيانه، وموسِّعٍ لأروقة مسجده، فمن ذلك: ما قام به الخليفة عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من توسعة المسجد الحرام، ثم تلاه الخليفة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]، وهكذا استمر تعظيم البيت، والعناية به لدى الخلفاء والملوك، حتى وقتنا الحاضر.

وفي ظلّ الحكومة السعودية قامت أكبر ثلاث توسعات للمسجد الحرام عبر التأريخ[٧]:

الأولى: في عهد الملك سعود بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ.

الثانية: في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ابن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ.

الثالثة: في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله ابن عبد العزيز حفظه الله.

(١) أصل القصة أخرجها البخاري (٣٣٦٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٦٦) واللفظ له، ومسلم (٥٢٠).

(٣) انظر: الاستيعاب (١٦٥٢/٤)، أسد الغابة (٩٩/٦)، الإصابة (١٢٥/٧).

(٤) انظر: الفوائد لابن القيم (١٩٣).

(٥) انظر: فتح الباري (٤٠٨/٦-٤٠٩)، وشرح صحيح مسلم للنووي (٢/٥).

(٦) انظر: أخبار مكة للأزرقي (٦٥/٢، ٦٩)، وأخبار مكة للفاكهي (١٥٨/٢-١٥٩).

(٧) انظر: عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي في العهد السعودي لابن دهيش (٨٧- وما بعدها).

(٢)

حج الأنبياء

حين أذّن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالحجِّ بعد بناء البيت الحـرام أجاب دعوته ما لا يحصى من البشر، وكان في مقدمتـهم أنبيـاء الله ورسله الكرام، فحجَّ إبـراهيم وإسماعيـل، وحـج موسـى، وحـج يونس عليهم الصَّلاة والسّلام، وغيرهم مـن أنبيـاء الله صـلوات الله وسـلامه علـيهم أجمعـين، إلا أن الحجَّـة الـتي سُـطِّرت وقائعُهـا وحُفِظـت أحـداثُها هـي حجَّـة المصـطفى رسـول الله محمّـد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجَّة الوداع.

وهي الحجَّة التي يحرص كل مسلم أن يكون حجُّه موافقًا لتلك الحجَّة العظيمة اقتداءً بالرسول الكريم عليه أفضل الصّلوات وأزكـى التسليم.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرّ بوادي الأزرق، فقال: «أَيُّ وَادٍ هَذَا؟». فقالوا: هذا وادي الأزرق. قال: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَابِطًا مِنْ الثَّنِيَّةِ وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللَّهِ بِالتَّلْبِيَةِ». ثم أتى على ثنية هَرْشَى، فقال: «أيُّ ثنيةٍ هذه؟». قالوا: ثَنِيَّةُ هَرْشَى. قال: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةٍ، عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ، خِطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ، وَهُوَ يُلَبِّي»[1].

[راوي الحديث] يروي هذا الحديث عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يسمى بَحْرَ هذه الأمّة وحَبْرَها، مات بالطائف سنة ٦٨[2].

[غريب الحديث] وقوله: «وادي الأزرق» بالرّاء المهملة بعد الزّاي، ثم قاف، أَفْعَل من الزُّرقة، وهو وادٍ خلف أمج إلى مكة بميل[3].

و«الثنية»، أي: الطريق بين جبلين[4].

والجُؤار: رفع الصوت[5].

و«هَرْشَى» بفتح الهاء وسكون الرّاء: جبل على طريق الشَّام والمدينة، قريب من الجُحفة[6].

والنَّاقة الجَعدة: الممتلئة اللحم[7].

والجُبَّة: ثوب سابغ واسع الكمين مشقوق المقدم، يلبس فوق الثياب[8].

و«خِطام» بكسر الخاء: الحبل الذي يقاد به البعير، يجعل على خَطْمه، أي: أنفه[9].

والخُلْبَة بضم الخاء: اللِّيف[10].

[كلمة الحديث] هذه روايةُ درسٍ من دروس السيرة النبوية الكريمة، فيه: تعظيمٌ للبلد الحرام، وفيه: توحيدٌ لله تعالى، وإخلاص الدِّين له، وفيه: توقيرٌ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم ومحبتهم وبيان منزلتهم وعبوديتهم لله سبحانه وتعالى في امتثالهم نداء أبيهم الخليل إبراهيم عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

وفي الحديث مشروعية التعليم عند الأماكن والآثار؛ فإنَّ النبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يذكر شيئًا عن حجِّ موسى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ حتى أتى على وادي الأزرق، ثم أمسك صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى أتى على ثنية هرشى فذكر لهم حجَّ يونس عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بعد أن استحضر أذهانهم بسؤالهم عن المكان فيهما.

[فوائد الحديث] وممّا يؤخذ من الحديث:

١- أن الحج إلى بيت الله الحرام من شعائر الأنبياء السابقين[11].

٢- الترغيب في الحج والتواضع فيه اقتداءً بأنبياء الله تعالى[12].

٣- استحباب رفع الصوت بالتلبية[13].

٤- مشروعية التعليم في مكان الحدث.

[تطبيقات عملية] وممّا يُذكر في حجِّ الأنبياء عليهم السلام تعظيمًا لبيتِ الله الحرام: حجُّ نبيِّ الله عيسى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في آخر الزَّمان، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**والذي نفسي بيده ليُهلنَّ ابنُ مريم بفجِّ الرَّوحاء حاجًا أو معتمرًا، أو لَيَثْنِيَنَّهما**»[14].

قال النوويُّ: (وهذا يكون بعد نزول عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ من السَّماء

في آخر الزَّمان)[١٥].

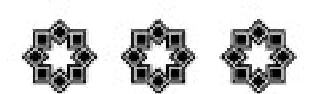
وكذلك حجُّ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجَّة الوداع، وما أظهر فيها من تعظيمٍ لهذا البلد الحرَّام، وما أكرمه الله تبارك وتعالى فيها، فأوَّلُ ذلك: أنّه أَهَلَّ فيه بالتوحيد: «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**»[١٦].

وخالف هدي المشركين في حجَّته؛ فوقف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعرفات إلى غروب الشمس، ونفر من مزدلفة بعد الإسفار، وقبل طلوع الشمس.

وأتمَّ الله عليه وعلى أمَّته النعمة، فأكمل له الدِّين يوم عرفة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة:٣][١٧].

وخطب النَّاس يوم النَّحر، فكان ممّا قال: «**أتدرون أيّ يوم هذا؟**». «**أيّ شهر هذا؟**». «**أيّ بلد هذا؟**». «**فإنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربَّكم، ألا هل بلَّغت؟**». قالوا: نعم. قال: «**اللهم اشهد. فليبلغ الشاهدُ الغائبَ، فرُبَّ مبلَّغٍ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[١٨].

قال أهل العلم: نبَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبته هذه على تعظيم يوم النحر، وعلى تعظيم شهر ذي الحجة، وعلى تعظيم البلد الحرام[١٩].



(١) أخرجه مسلم (٢٤١).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٤/١٤١).

(٣) معجم ما استعجم (١/١٤٦).

(٤) تحرير ألفاظ التنبيه (١٤٩).

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي (٢/٢٢٩).

(٦) المصدر السابق نفسه.

(٧) المصدر السابق نفسه.

(٨) المعجم الوسيط (جب).

(٩) لسان العرب (خطم).

(١٠) شرح صحيح مسلم للنووي (٢/٢٢٩).

(١١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٠/٣٩٤).

(١٢) المصدر السابق نفسه.

(١٣) انظر: السنن الكبرى للبيهقي (٥/٤١-٤٢).

(١٤) أخرجه مسلم (١٢٥٢).

(١٥) شرح صحيح مسلم للنووي (٨/٢٣٤).

(١٦) انظر: صحيح مسلم (١٢١٨): حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في حجّة النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١٧) عن عمر بن الخطاب أن رجلًا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا. قال: أي آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]. قال عمر: (قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو قائم بعرفة يوم جمعة) أخرجه البخاري (٤٥).

(١٨) أخرجه البخاري (١٧٤١).

(١٩) انظر: فتح الباري (٣/٣٧٧).

(٣)

الرحلة إلى الأماكن المشرَّفة

إذا جلّ المطلوب، وعظم المقصود؛ سهُل على النفوس بذل المجهود في السير إلى البقاع الفاضلة. وإن كان في ذلك عسر ومشقة، فقد ذُكِرَ عن المغيرة بن حكيم أنه سافر إلى مكة أكثر من خمسين سفرًا صائمًا محرمًا حافيًا، وكان لا يترك صلاة السحَر في السفر[١].

إذا غامرتَ في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم[٢]

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إلى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ؛ مَسْجِدِي هَذَا، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى»[٣].

[راوي الحديث] أبو هريرة الدّوسي صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قيل في اسمه: عبد الرحمن بن صخر، ولي إمرة المدينة مدةً، وكان أكثر مقامه فيها، توفي بها سنة ٥٨ أو ٥٩، وله ٧٨ سنة[٤].

[غريب الحديث] قوله: «الرِّحال»: جمع رَحْل، وهو: ما يوضع على ظهر البعير تحت الرّاكب، كالسّرج للفرس، والمقصود بشدِّها: السَّفر[٥].

[كلمة الحديث] إنّ الرّحلة للأماكن الفاضلة، والمواطن المقدسة أمان من الفتن المهلكة والمذاهب المضلّة بإذن الله تعالى، وأمانٌ من عذاب الآخرة، وتحصيلٌ لسعادة الدُّنيا والآخرة في مضاعفة الأجور وبركة الأرزاق وكثرة المنافع؛ لذلك كانت مقصدًا للسالكين، وموئلاً للعابدين منذ النداء الخالد من خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال الزمخشريُّ في تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت] (معنى الآية: أنّ المؤمن إذا لم يتسهَّل له العبادة في بلد هو فيه، ولم يتمش له أمر دينه كما يحب؛ فليهاجر عنه إلى بلد يُقدِّر أنه فيه أسلم قلبًا، وأصحّ دينًا، وأكثر عبادةً، وأحسنُ خشوعًا. ولعمري، إنّ البقاع تتفاوت في ذلك التفاوت الكثير، ولقد جرّبنا وجرّب أوّلونا؛ فلم نجد فيما دُرْنا وداروا أعوَنَ على قهر النَّفسِ وعصيان الشهوة، وأجمعَ للقلب المتلفت، وأضمَّ للهمِّ المنتشر، وأحثَّ على القناعة، وأطردَ للشيطان، وأبعدَ من كثير من الفتن وأضبطَ للأمر الديني في الجملة،

من سكنى حرم الله، وجوار بيت الله)[٦].

[فوائد الحديث]

وممّا يؤخذ من الحديث:

١- فضل هذه المساجد الثلاثة[٧].

٢- فضل شدِّ الرِّحال إليها[٨].

٣- نعمة ساكني هذه الأماكن الفاضلة؛ لعدم احتياجهم لشدِّ الرِّحال لزيارة الأماكن التي هم فيها.

٤- النهي عن شدِّ الرِّحالِ إلى غير هذه المساجد الثلاثة؛ إذا كان القصد من ذلك الصَّلاة فيها، وتعظيمها[٩].

٥- السَّفر للتجارة وطلب العلم وغير ذلك مما يُحتاج إليه لا يدخل في النهي[١٠].

٦- من نذر الصلاة في المسجد النبوي؛ فإنه تكفيه الصلاة في المسجد الحرام، ومن نذر الصلاة في المسجد الأقصى؛ فإنه تكفيه الصلاة في المسجد النبوي.

٧- من نذر إتيان غير هذه المساجد الثلاثة للصلاة فيها؛ فلا يلزمه الوفاء به؛ لأنه لا فضل لبعضها على بعض. فيصلي في أيّ مسجد كان، وليس عليه أن يشدَّ رحله إلى المسجد المنذور فيه[١١].

٨- خصّ عليه الصلاة والسلام هذه المساجد الثلاثة بذلك؛ لأنها مساجد الأنبياء، وقد أُمِرْنا بالاقتداء بهم، قال الله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠][١٢].

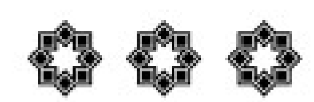
[تطبيقات عملية]

وممَّا رُوي في شدِّ الرِّحال إلى هذه الأماكن المقدَّسة: أنّ أبا محمد الطبري المكيَّ الشافعيَّ[١٣] تولّى الإمامة بمكة، ثم بمسجد

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قدم في أواخر أيامه بيتِ المقدس، فأمَّ الناسَ به. قال الذهبيُّ: (فجمع اللهُ الإمامةَ له في المساجد الثلاثة، التي لا تشدُّ الرِّحالُ إلاَّ إليها)[١٤].

وهذا العلاّمة عبد الصمد بن عبد الوهاب الدمشقي[١٥] حفيد الحافظ ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق: رحل إلى مكة، وانقطع بها نحوًا من أربعين سنة، وشدّ رحاله منها إلى المدينة فمات بها سنة ٦٨٦ رحمه الله تعالى.

وقصد الشيخ المحدث مفتي الشرق علاء الدين النهروالي الحنفي، مكةَ، قادمًا من (هرموز) بنيَّة المجاورة والانقطاع بمكة لغلبة الفتن، وانتشار مذهب الروافض في بلاد العجم، فسكن بباب العمرة ودرّس بالمسجد الحرام[١٦].



(١) أخبار مكة للفاكهي (٢/ ٣٢٣).

(٢) البيت للمتنبي. انظر: شرح ديوان المتنبي، لأبي البقاء العُكبري (١/ ١٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٩)، ومسلم (٢٤٧٥).

(٤) معجم الصحابة لابن قانع (٢/ ١٩٤)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٥٧٨)، والإصابة لابن حجر (٧/ ٤٢٥).

(٥) فتح الباري لابن حجر (١/ ١٢٢).

(٦) الكشاف (٣/ ٤٦٥).

(٧) شرح صحيح مسلم للنووي (٩/ ١٦٨)، وزاد المعاد (١/ ٤٨).

(٨) شرح صحيح مسلم (٩/ ١٦٨).

(٩) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٦٤)، وشرح الطيبي على المشكاة (٢/ ٢٢٤).

(١٠) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٦٥).

(١١) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض (٤/ ٢٦٧).

(١٢) غريب الحديث للخطابي (١/ ١٣٣).

(١٣) هو: مجد الدين عبد الله بن محمد الطبري المكي الشافعي، المحدث المفتي، ولد بمكة سنة ٦٢٩، أمَّ الناسَ بالمساجد الثلاثة، وأفتى بها. توفي بالقدس سنة ٦٩١. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٥٢/ ١٢١-١٢٢).

(١٤) تاريخ الإسلام (٥٢/ ١٢٢).

(١٥) هو: عبد الصمد بن عبد الوهاب بن الحسن ابن عساكر الدمشقي ثم المكي، اعتنى من صغره بالعلم، وبخاصة علم الحديث. انظر: لحظ الألحاظ لابن فهد (ص ٨١-٨٢).

(١٦) بلوغ القِرى في ذيل إتحاف الورى (٣/ ١٩٥٦).

(٤)

صلاة بمئة ألف صلاة

مرضت امرأةٌ فنذرت: إنْ شفاها اللهُ لتخرجنَّ للصَّلاة في بيت المقدس، فبَرَأَتْ. ثم تجهزت تريد الخروج، فجاءت أمَّ المؤمنين ميمونةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تسلِّمُ عليها، وأخبرتْها الخبر، فقالت لها أمُّ المؤمنين: (اجلسي، فكُلي ما صنعتِ، وصلِّي في مسجد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[1].

ذلك أنَّ الصلاة فيه تَفْضُلُ على الصلاة في بيت المقدس، والصلاة في المسجد الحرام تفضل على الصلاة فيهما جميعًا.

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَصَلاَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِئَةِ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ» (٢).

[راوي الحديث] جابر بن عبد الله صحابي ابن صحابي، أبوه: عبد الله بن عمرو ابن حرام الأنصاري. وقد شهد جابرٌ العقبة الثانية مع أبيه وهو صغير. وكان من المكثرين للحديث، وكُفَّ بصرُه في آخر عمره، توفي سنة ٧٤. وقيل: ٧٧. وقيل: ٧٨. وهو آخر من مات بالمدينة ممن شهد العقبة(٣).

[كلمة الحديث] تبرزُ فضائل المسجد الحرام والمسجد النبوي في هذا الحديث في مضاعفة أجر الصلاة المكتوبة بها، وتفضلُ مكة بحَرَمِها على المدينة في هذه المضاعفة، فالحسنة في جميع حدود الحرم بمئة ألف صلاة، وهذا من البركة التي جعلها الله تبارك وتعالى في البلد الحرام، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران].

وقد ثبت في الحديث الصحيح: أنّ الصلاة في المسجد الأقصى تعدل خمس مئة صلاة، فعن أبي الدّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فضلُ الصلاةِ في المسجد الحرام على غيره مئة ألف صلاة، وفي مسجدي ألف صلاة، وفي مسجد بيت المقدس خمس مئة صلاة**»(٤).

[فوائد الحديث]

والحديث يحمل فوائد عدَّة، منها:

١- فضل الصّلاة في المسجد الحرام والمسجد النّبوي[٥].

٢- الصّلاة في المسجد الحرام تعدل ثواب مئة ألف صلاة في غيره من المساجد، والصلاة في المسجد النبوي تعدل ثواب ألف صلاة في غيره من المساجد سوى المسجد الحرام[٦].

٣- المضاعفة تشمل الفرض والنّفل على قول الشّافعية والحنابلة، وخالفهم الحنفية والمالكية فجعلوها في الفرض دون النّفل[٧].

٤- الفضل والمضاعفة للثّواب فقط، ولا يجزئ عن ترك صلاة أخرى[٨].

٥- صلاة واحدة في المسجد الحرام تعدل عُمْر خمس وخمسين سنة وستة أشهر وعشرين ليلة، وصلاة يوم وليلة تعدل عُمْر مئتين وسبعين سنة وسبعة أشهر وعشر ليالٍ[٩].

٦- يشمل الفضل في مكة المساجد التي داخل حدود الحرم على قول الجمهور، وجميع الزّيادات الملحقة بالمسجد النّبوي والمسجد الأقصى[١٠].

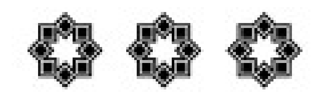
٧- الأمكنة تشرف بفضل العبادة فيها؛ ولذا ذهب جمهور العلماء إلى أن مكة أفضل من المدينة خلافًا للمالكية[١١].

٨- عِظَم النّعمة التي لساكني مكة والمدينة والقدس في مضاعفة الحسنات، وبخاصة أهل مكة الذين تضاعف صلواتهم في جميع حدود الحرم.

[تطبيقات عملية]

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحرص الناس على اغتنام الأجر في الأزمنة والأمكنة الفاضلة، فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زمن الحديبية عندما صدَّه المشركون عن البيت إذا حان وقت الصلاة، دخل وصلَّى في حدود الحرم[١٢].

ثم تأسَّى به صحابته الكرام من بعده، فهذا عبدُ اللهِ بن عمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان له منزلان؛ أحدُهما في الحرم، والآخرُ في الحلّ، فإذا أراد أن يصلي صلّى في الذي بالحرم، وإذا كانت له حاجة إلى أهله جاء الذي في الحل[١٣].



---

(١) أصل القصة أخرجها مسلم (١٣٩٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣٤٣)، وابن ماجه (١٤٠٦) واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١١٥٥).

(٣) انظر: الاستيعاب (١/٢١٩)، أسد الغابة (١/٣٠٧)، الإصابة (١/٤٣٤).

(٤) أخرجه البزار في مسنده (كشف الأستار ٢١٣/١)، قال ابن عبد البر: «قال البزار: إسناده حسن». وحسّنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٧).

(٥) انظر: سبل السلام (٢/٢١٦).

(٦) انظر: التمهيد (٦/٣٢).

(٧) انظر: المجموع للنووي (٧/٤٦٩)، وشرح فتح القدير (٣/١٧١).

(٨) انظر: شرح الزرقاني على موطأ مالك (٢/٤).

(٩) مثير العزم الساكن (١/٣٥٩). وينظر: شفاء الغرام (١/١٧١)، وفتح الباري (٣/٨٢).

(١٠) انظر: تحفة الأحوذي (٢/٢٣٨)، وعليه فتيا سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز.

(١١) انظر: فتح الباري (٣ / ٦٧)، فيض القدير (٤/٢٩٩).

(١٢) انظر: مسند الإمام أحمد (٤/٣٢٥)، والحديث حسَّنه الأرناؤوط (١٨٩٣٠).

(١٣) أخرجه الأزرقي في تاريخ مكة (٢/١٣١)، وابن جرير في التفسير (٩/١٣٢).

(٥)

لا تدع سكنى مكة

حجَّ الإمام محمد بن الحسين الآجُرِّي[١] في إحدى السنوات، وحين رأى جلال الكعبة وقداستها؛ سأل الله تعالى بصدقٍ أن يُمتِّعه بالإقامة بها سنةً؛ فسمع من يقول له: بل ثلاثين سنة.

فتحقق له ذلك، وعاش بمكة ثلاثين سنة، ودفن بها[٢].

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمكة: «مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ، وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ. وَلَوْلاَ أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ»(٣).

[كلمة الحديث]

شرَّف الله تبارك وتعالى مكة، وجعلها أطيب بلاده وأحبَّها إليه - عزَّ في علاه حكيمًا عليمًا - وإلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد كان خروج النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها عزيزًا عليه، شديدًا على نفسه.

وعلى من شرَّفه الله تبارك وتعالى بهذه النِّعمة العظيمة أن يقف عند كلمة «**مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ**»، فيراعي طيبَ هذه البلدة، فلا يأتي فيها إلاّ ما هو طيّب، وأنّه لأجل طيب هذه البلدة المباركة، وخبث الشرك، حرَّم الله تعالى دخول المشرك فيها.

وعليه أن يُلاحظ ما ذكره ابن الضياء(٤) الحنفي، حيث قال: ينبغي لكل من هو بمكة من أهلها والمجاورين بها من الحجاج والزوار أن يقدر قدرها، ويعظم حرمتها، ويلاحظ سرّها، ويتأمل فضيلتها، ويستديم ما أصبح به من نعمة جواره لبيت الله بشكر القيام بحقِّه، ويجتنب كثيرًا من المباحات التي لا يليق بمن حلّه تعاطيها. ويُنَزّهه من اللهو واللعب والترفهات التي لا جدوى فيها. فإنها بلدُ عبادةٍ، لا بلد رفاهة. ومكان اجتهاد، لا مكان راحة. ومحل تيقظ وفكرة، لا محل سهو وغفلة(٥).

[فوائد الحديث]

ممّا يؤخذ من هذا الحديث:

١- أنّ فيه دليلاً على ما ذهب إليه جمهور العلماء، أن مكة أفضل من المدينة، وإن كان الفضلُ ثابتًا للمدينة(٦).

٢- أنّ على المؤمن أن يصبر على شظف العيش بمكة، ويحتسب ذلك عند الله تعالى.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أقم بمكة، وإن أكلت بها العضاه)، يعني: السمر[٧].

٣- عِظَم البلاء الذي لقيَه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٤- مكة بلدٌ طيّب، والمشرك خبيثٌ ليس بطيِّب، فلا يحل له سكناها.

٥- قال المباركفوري: لا ينبغي للإنسان بعد أن أكرمه الله بسكناها أن يترك السكنى بها، إلا لضرورة دينية أو دنيوية[٨].

٦- عِظَم نعمة الله تبارك وتعالى على ساكني مكة، فهم يسكنون أطيب بلدٍ، وأحبّ بلدٍ إلى الله.

[تطبيقات عملية] وقد بقي في قلوب المهاجرين الحنينُ إليها، تجيش صدورهم بها بين حينٍ وآخر، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (لولا الهجرة لسكنت مكة، إني لم أر السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة، ولم أر القمر بمكان قط أحسن منه بمكة)[٩].

وخرج الحارث بن هشام زمن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بأهله وماله من مكة إلى الشام ليرابط على ثغور المسلمين، فتبعه أهل مكة يبكون عليه، فرقّ وبكى، ثم قال: أما لو كنا نستبدل دارًا بدار، وجارًا بجار؛ ما أردنا بكم بدلاً، ولكنها النّقلة إلى الله عزَّ وجلَّ، فلم يزل حابسًا نفسه ومن معه بالشام مجاهدًا، ولم يبق من أهله وولده غير عبد الرحمن وأم حكيم بنت الحارث حتى ختم الله له بخير[١٠].

---

(١) هو: محمد بن الحسين، أبو بكر الآجري، نزل مكة وتوفي بها سنة ٣٦٠.
انظر: العقد الثمين (٢/٣-٥).

(٢) المرجع نفسه (٢/٣).

(٣) أخرجه الترمذي وصححه (٣٩٢٦)، وابن حبان (٩/٢٣)، والحاكم في المستدرك (١/٦٦١)، والألباني في صحيح سنن الترمذي (٣٠٨٣).

(٤) هو: محمد بن أحمد بن الضياء القرشي المكي، فقيه حنفي، تولى قضاء مكة، وتوفي سنة ٨٥٤.
انظر: الأعلام (٥/٣٣٢).

(٥) البحر العميق (١/١٤٢).

(٦) انظر: تحفة الأحوذي (١٠/٢٩٥).

(٧) شفاء الغرام (١/١٧٦ - ١٧٧).

(٨) انظر: تحفة الأحوذي (١٠/٢٩٤).

(٩) أخبار مكة (٢/١٥٣).

(١٠) العقد الثمين (٤/٣٤).

(٦)

القرية الفاضلة

ليس على وجه الأرض بقعة ثبت لها من المكانة والفضل ما ثبت لمكة، ففضلها عظيم والأجر في سكناها جليل؛ ولهذا كان السلف يوصي بعضهم بعضًا بمجاورتها وعدم الزهد فيها.

بل بلغ من حبِّهم لها التغني بذكراها، كما حصل من أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقد كان يطوف بالبيت، وهو يقول:

يا حبذا مكة من وادي أرضٌ بها أهلي وعُوَّادي

فمرَّ به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوضع يده على منكبه، فقال: «**الله أكبر .. الله أكبر**». فقال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (الله أكبر .. الله أكبر)[1].

عن عبد الله بن عدي بن حمراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: رأيتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقفًا على الحَزْوَرَة، فقال: «وَاللَّهِ، إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»[٢].

[راوي الحديث] روى هذا الحديث عبد الله بن عدي بن حمراء، وهو: قرشيٌّ زهريٌّ. ويقال: إنه ثقفي، ولكنه حالف بني زهرة. من مُسْلِمة الفتح، عِداده في الصحابةِ، ولم يروِ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلاّ هذا الحديث[٣].

[غريب الحديث] قوله: «الحَزْوَرَة»: هي الربوة الصغيرة، موضع بمكة عنْدَ باب الحنّاطِين، وقد دخلت في توسعة المسجد الحرام لمَّا زيد فيه[٤].

[كلمة الحديث] إن الحنين يقوى، والوجدَ يعظُمُ حين يتعلَّق ذلك بالبيت الحرام الذي جعل اللهُ حبَّه والشوقَ إليه في قلب كل مسلم ينبض بالحياة.

وقد بيَّن الحديث الدوافع الشّرعيَّة التي لأجلها تُحبُّ مكة من أهلها ومن المسلمين عمومًا؛ فهي خير أرض الله، وأحبُّ أرض الله إلى الله، فحبُّها في قلوب المسلمين فوق أيِّ حبٍّ لأيّ بلدٍ آخر. ومن أكثر ما يجسّد هذا الحبَّ الصادقَ لأمِّ القرى طولُ المكثِ والمجاورةِ بها، دون أيّ غرض سوى العبادة، والتعظيم لها، قال أبو عمر الزّجاجي: من جاور بالحرم وقلبُه متعلق بشيء سوى الله تعالى؛ فقد أظهر خسارته[٥].

[فوائد الحديث] وممَّا يؤخذ من الحديث:

١- الخيرية المطلقة لمكة المكرمة شرفها الله.

٢- أم القـــرى أحـــبُّ أرض الله إلى الله تعـــالى وإلى رســـوله ﷺ.

٣- في هذا الحديث دليل قاطع على أن مكة أفضل من المدينـة، وأنّ بعض بقاع الأرض يحبها الله تعالى أكثر من بعض[٦].

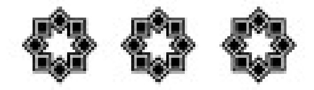
٤- محبّة ما يحبُّه الله إيمانٌ، وبغضُ ما يبغضه الله إيمانٌ.

٥- في الحديث إثبات صفة المحبّة لله تعالى، على الوجه اللائـق به سبحانه وتعالى.

[فوائد عملية] وقـد رغـب السّـلفُ رحمهـم الله تعـالى في قصـدِ هـذه البقعـة الطاهرة، وإحسانِ الوفادة فيها، وممّا روي في ذلك: أنّ جـابر بـن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأبا سفيان[٧] قصدا البلد الحـرام للمجـاورةِ فيـه، قال أبو سفيان: (جاورتُ مع جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بمكة في بني فهرٍ ستة أشهر)[٨].

وجاور عطاء بن أبي رباح بمكة، وأقام في المسجد الحرام أربعين سنة ما بين قيام وطواف وتعليمٍ للعلم[٩].

وكان الخليفة العباسي هارون الرشيد إذا جاوَر بمكة يطوف بعـد كل صلاة، وإذا صلّى العصر طاف حتى أذان المغرب[١٠].



(١) أخبار مكة للفاكهي (١/٣٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٣٠٥)، والترمذي وصححه (٣٩٢٥)، وابن ماجه (٣١٠٨)، والنسائي في الكبرى (٢/٤٧٩)، وصححه ابن حبان (٩/٢٢)، والحاكم في المستدرك (٣/٨، ٤٨٩)، والألباني في صحيح سنن الترمذي (٣٠٨٢).

(٣) أسد الغابة لابن الأثير (٣/٣٤٢)، والإصابة لابن حجر (٤/١٧٧).

(٤) مشارق الأنوار للقاضي عياض (١/٢٢٠)، والنهاية في غريب الحديث (١/٩٥٢).

(٥) مثير العزم الساكن لابن الجوزي (٢/٢١٠).

(٦) التمهيد لابن عبد البر (٢/٢٨٨)، وطرح التثريب للعراقي (٦/٤٦).

(٧) هو: طلحة بن نافع الإسكاف المكي، مولى لقريش، روى عن جابر وابن عباس وأنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. انظر: تهذيب الكمال (١٣/٤٣٨).

(٨) أخبار مكة للفاكهي (٢/٢٨٧).

(٩) المصدر نفسه (٢/٣٢١).

(١٠) المصدر نفسه (٢/٣٠٣-٣٠٤).

(٧)

الإلحاد في الحرم

قد لا يغيبُ عن كثيرٍ من النـاس أنّ للإلحـادِ في حـرم الله تعـالى صورًا عدَّة، ولكن من أعجب هذه الصور ما روي عن عطاء بن أبي رباح عالم مكة ومحدثها، وأعلم الناس بالمناسك في زمانـه، حـتى قيل: لا يُستفتى أحد في المناسك، وفي مكة عطاء.

كان رحمه الله يومًا يجالس طلابَـه، فقـام إليـه أحـدهم، وقـال: يا إمام! هلَّا أعطيتنا دراهمك، فاشترينا لك كمـا نشـتري لأنفسـنا؟ قال: وما تشترون؟ قالوا: الطعامَ إذا رخـص اشـتريناه، فألقينـاه في البيوت، فإذا غلا بعناه. فقال: لا حاجة لي فيه، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج][١].

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلاثَةٌ؛ مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ»[٢].

[غريب الحديث] ملحدٌ: أصل الإلحاد: الميل، والمراد به هنا: الميل عن الحق[٣].

سنَّة الجاهلية: ما كان عليه أهل الجاهلية[٤].

مُطَّلِب بضم الميم، وتشديد الطاء وكسر اللام: من يبالغ في الطلب[٥].

ليهريق: ليسفك دمه بالقتل[٦].

[كلمة الحديث] يتفاوت النَّاسُ في ميزان الله تبارك وتعالى بقدر ذنوبهم كثرةً ونوعًا، وفي الحديث إشارة إلى عِظَم بعض الذنوب لأجل جلالة وقداسة المكان، أو لعظم أثرها.

فارتكاب المعصية بالبلد الحرام الذي حرَّمه الله، وجعل له المكانة في التحريم ما لم يجعله لبلد غيره إلحادٌ، وقد ذكر العلماء أن الإنسانَ إذا همَّ بفعل معصيةٍ في الحرم، أو حدَّث نفسَه بارتكابها؛ فإنه يؤاخذ عليها؛ حتى وإن كان أوقعَ هذا الهمَّ في نفسه، وهو خارج الحرمِ، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج].

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسيرها: (لو أنّ رجلًا هَمَّ فيه بإلحاد، وهو بعدن أبين؛ لأذاقه الله عز وجل عذابًا أليمًا)[٧].

وممّا تجدر الإشارة إليه: أن يحذر الساكن بمكة أن يأخذ به الإلف في سكناها إلى ضعف استشعار حرمة البلد الحرام، فيأنس

إلى شيءٍ من الإلحاد فيها.

[فوائد الحديث]

ومن فوائد الحديث:

١- خطورة الإلحاد بالكفر أو المعاصي في حرم الله تعالى . وأنّ المعصية في الحرم أشُّد من المعصية في غيره. وأنّها تستجلب غضب الله ومقته لمرتكبها .

٢- الحسنات تضاعف في الحرم، والسيئات تُعَظَّم، بخلاف سائر البلدان.

٣- حفظ الإسلام لحقوق الإنسان، وإعلانه لقواعد العدالة. وأنّه لا يجوز لولي الدَّمِ المسفوك عمدًا أن يطلب قتلَ غيرَ قاتل وليِّه.

٤- مفارقة الجاهلية وأهلها في كل ما هو من خصائصها التي عرفت بها، وتضاد الإسلام.

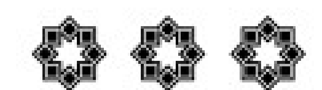
٥- في الحديث تحذير من الإلف الذي يقود إلى ضعف استشعار حرمة البلد الحرام لمن سكن مكة أو جاور فيها لفترة طويلة.

[تطبيقات عملية]

ولأجل عظم أمر الإلحاد في الحرم عند السلف اشتدَّ حرصُهم على الحذر منه، والنهي عنه، ووعظهم به: فروي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه كان ينادي في أهل مكة، ويحذرهم مَغَبَّة الإلحاد في بلد الله الحرام، فيقول: (اتقوا الله في حرم الله، أتدرون من كان ساكن هذا البيت ؟ كان به بنو فلان فأحلوا حُرمته فأهلكوا، وكان به بنو فلان فأحلوا حُرمته فأهلكوا، حتى ذكر ما شاء الله من قبائل العرب أن يذكر، ثم قال: لأن أعمل عشر خطايا في غيره أحبَّ

إليَّ من أن أعمل هاهنا خطيئة واحدة)[٨].

وكان عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا إذا جلس في الحِجْر والتفَّ النَّاسُ حوله، يطعن بمخصرته في البيت، ويقول: (انظروا ما أنتم قائلون غدًا إذا سُئل هذا عنكم وسئلتم عنه، واذكروا إذ عامره[٩] لا يتجر فيه بالرِّبا، ولا يُسفك فيه الدِّماء، ولا يُمشى فيه بالنميمة)[١٠].



(١) انظر: أخبار مكة للفاكهي (٣/٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٨٢).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (لحد).

(٤) انظر: فتح الباري (١٢/٢١٢).

(٥) انظر: فتح الباري (١٢/٢١٢)، فيض القدير (١/١٠٨).

(٦) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٨/٥١٠)،

(٧) روي مرفوعًا، وموقوفًا، رواه مرفوعًا أحمد (١/٤٢٨)، وأبو يعلى (٩/٢٦٢). ورواه موقوفًا: ابن أبي شيبة (٤/٣٥٢)، والدارقطني في العلل (٥/٢٦٩)، والحاكم (٢/٣٨٧)، والصحيح أنه موقوف كما قال ابن حجر في (الفتح ١٢/٢١٠).

(٨) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٤/٣٥٢).

(٩) أي: ساكنه.

(١٠) تاريخ مكة للأزرقي (٢/١٣٧).

(٨)

بيئة البلد الأمين

إنّ لكل عظيم خصوصية تليق بمكانته. ومكة لمَّا كانت بلد الله تعالى وحرمَه في الأرض؛ جعل لها من الأحكام والخصائص ما يليق بحرمتها ومكانتها.

وقد بيَّن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ذلك بيانًا واضحًا، وأعلنه للناس إعلانًا عامًّا، وذلك في خطبته بعد فتح مكة، حتى يعلم الجميع ما لهذه البلدة من القدسية والإجلال.

عن ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : قال النّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم افتتح مكة : «لاَ هِجْرَةَ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ. وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا، فَإِنَّ هَذَا بَلَدٌ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلاَ يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ، إِلاَّ مَنْ عَرَّفَهَا، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا».

قال العباس : يا رسول الله، إلاَّ الإِذْخِر؛ فإِنَّهُ لِقَيـنِهِم وَلِبُيُوتِهِم. قال : «إلاَّ الإِذْخِرَ» (١).

[غريب الحديث]

الاستنفار: الاستنجاد والاستنصار، أي: إذا طلب منكم ولي الأمر النصرة، فأجيبوا وانفروا خارجين إلى الإعانة (٢).

وقوله: «لا يعضد»: لا يقطع (٣).

«لا ينفرّ»، أي: لا يُزْعَج، ولا يُحرَّك عن موضعه(٤).

«لا يلتقط»: لا يأخذ(٥).

«عرَّفها» بتشديد الراء، أي: أعلن عن أوصافها ليستدل عليها صاحبها(٦).

«يختلى»: يقطع (٧).

«خلاها»: الخلا: الحشيش الرطب(٨).

«الإذخر»: نبت معروف له رائحة طيبة، قضبانه دقاق تجتمع في أصل واحد، مندفن في الأرض(٩).

«لقينهم»: القَين: الحداد[١٠].

[كلمة الحديث] لا يُهاجَر من مكة بعد فتحها، فقد صارت دار إسلام، ولن تعود بلدَ كفر أبدًا، ولكن يبقى الجهادُ واجبًا على من استنفره وليّ أمر المسلمين.

ومكة بلدٌ حرامٌ، حُرِّمت منذ أن خلق الله السماوات والأرض، وقبل أن تُبنى عليها الكعبة المشرفة، وتحريمها باقٍ إلى يوم القيامة. وقد أبيح القتال فيها للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساعة من النَّهار يوم الفتح خاصة؛ ليطهرها من الشِّرك وأهله.

وحيثُ صارت بلد إيمانٍ إلى يوم القيامة؛ وجبَ لهذه الأرض أن يُعرف لها حرمَتُها؛ فلا تنتهك.

[فوائد الحديث] وممّا يرشد إليه الحديث:

١- تحريم قطع شجر الحرم، وإن كان مؤذيًا كالشوك[١١].

٢- تحريم تنفير الصيد في الحرم، أو إيذائه بما هو أعظم، أو قتله[١٢].

٣- تحريم التقاط لقطة الحرم؛ إلا من أراد أن يعرفها دائمًا، ولا يتملكها أبدًا[١٣].

٤- تحريم قطع حشيش الحرم الأخضر؛ إلا الإذخر فيجوز[١٤].

٥- جواز قطع الحشيش اليابس[١٥].

٦- جواز قطع الشجر والحشيش النابتين بفعل الآدمي؛ لأنهما ملكه على قول الجمهور[١٦].

٧- ليس المراد حصر الأمور المحرّمة في مكة، وإنما ما اختصت به دون بقية البلدان.

٨- مكة أفضل أرض دائمة لأهل الإيمان.

٩- عظم القتال وإراقة الدماء بمكة.

١٠- ضرورة إشاعة خصائص البلد الحرام اقتداء برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بلاغه وتعليمه.

١١- فضل العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وعنايته بأمر مكة[١٧].

[تطبيقات عملية]

ولهذا الحديث أثرُه السُّلوكي في تعامل المسلمين مع البيئة المكيّة، من ذلك: مرور ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ومجاهد وهما يطوفان بحُقّة فيها درّة، فلم يعرضا لها، ولم يأخذاها[١٨].

ورأى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رجلاً يحتش في الحرم فزجره، وقال: (أما علمتَ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن هذا). فشكى الرَّجلُ إليه الحاجة، فرقَّ له عمرُ، وأمر له بشيء[١٩].

وكان يعظمُ على العلماءِ انتهاك حرمة بيئة مكة، والتعرُّض لصيدها، وإن وقع ذلك من طفل غير مُكلَّف، فقد جيئ بطفل قرشي قتل حمامة إلى ابن عباس وهو بمكة، فأوجب على أبيه شاةً بدلها [٢٠].

وعلى ذلك نشأ أهل مكة قديمًا، قال مجاهد: كانت الحمامة بمكة تؤخذ، فيقولون: من فعل هذا؟ من فعل هذا؟ لتنتهُنَّ أو لَنُحْرَمَنَّ قطرَ السماء[٢١].

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٤) واللفظ له، ومسلم (١٣٥٣).
(٢) النهاية في غريب الحديث (نفر).
(٣) فتح الباري (١/١٥٧).
(٤) تفسير غريب ما في الصحيحين للحميدي (١٤٠).
(٥) انظر: عمدة القاري (٢/١٦٤).
(٦) انظر: فتح الباري (٥/٨٢) بنحوه.
(٧) عمدة القاري (٢/١٦٤).
(٨) عمدة القاري (٢/١٦٤).
(٩) تاج العروس (ذخر).
(١٠) النهاية في غريب الحديث (قين).
(١١) شرح صحيح مسلم للنووي (٩/١٢٦).
(١٢) المصدر نفسه (٩/١٢٦).
(١٣) المصدر نفسه (٩/١٢٦).
(١٤) فتح الباري (٤/٥٩).
(١٥) المصدر نفسه (٤/٥٩).
(١٦) المصدر نفسه (٤/٥٩).
(١٧) المصدر نفسه (٤/٦٠).
(١٨) أخبار مكة للفاكهي (٣/٤٨).
(١٩) المصدر نفسه (٣/٣٧٠).
(٢٠) المصدر نفسه (٣/٣٨٢).
(٢١) المصدر نفسه (٣/٣٨٤).

(٩)

حماية الدم

ممَّا أحاطته الشريعة الإسلامية بسياج منيع، وامتازت بذلك عن باقي أمم الأرض، حماية الدم.

فلا يراق دم المسلم إلا بحقِّه، وببينة واضحة كالشمس، بل لا يستهان بحَمْل ما تكون فيه مظنة الاعتداء على المسلم، فضلاً عن مزاولته. ويُتأكد ذلك في حقِّ من دخل هذه البقعة الطاهرة.

حجَّ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرّةً، فأصابه بمنًى سنانُ الرمح في أخمص قدمه، فبلغ الحَجَّاجَ[1] ذلك، فدخل عليه يعوده، فقال الحجاجُ: لو نعلم من أصابك؟ فقال ابن عمر: أنت أصبتني. قال: وكيف؟ قال: حملتَ السلاحَ في يومٍ لم يكن يُحْمَل فيه، وأدخلت السلاحَ الحرمَ، ولم يكن السلاحُ يُدْخَل الحرمَ[2].

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لاَ يَحِلُّ لأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلاحَ»[٣].

[كلمة الحديث] من مباحث الأمن في مكة - حرسها الله - مبحث الأمن الشّرعي، وهو ما يجب على ساكني مكة والوافدين إليها تحقيقُه فيها، وامتثالُه، وهو ما يشير إليه الحديث من النهي عن حمل السلاح بمكة. وظاهر هذا الحديث قد يتعارض مع ما ثبت عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه دخل مكة في عمرة القضاء ومعه السِّلاح في القِرَاب، أي: داخل أغمادها لما شرطه في الصلح، ودخل عام فتح مكة حاملاً السِّلاح متأهبًا للقتال لمَّا أُذِنَ له فيه. ولكن يوفق بينها بأن النَّهي محلّه ما إذا لم تكن هناك حاجة للسِّلاح، وإلا جاز دخولها بالسِّلاح، وهو مذهب الجماهير، وقد كانت بالمسلمين حاجة لحمل السلاح في عمرة القضاء وفتح مكة[٤]. والله أعلم.

[فوائد الحديث] ممّا يؤخذ من الحديث:

١- حرمة مكة وعظمتها عند الله تعالى[٥].

٢- النهي عن حمل السلاح فيها حمايةً للدماء ودفعًا للظلم[٦].

٣- سد ذرائع الشر وكل ما فيه مظنة الأذى.

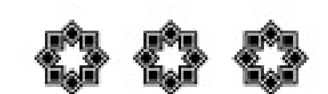
٤- جواز حمل السلاح بها في حالات الضرورة والحاجة[٧].

٥- تحريم القتال بمكة[٨].

[تطبيقات عملية] ومما يجسّد هذه المكانة أيضًا ما يذكر عن بدر الدين حسن بن عجلان المكيّ[٩] أنّه أمر بعدم حمل السلاح بمكة[١٠]، وذلك حفظًا ورعاية لحرمة الدِّم بمكة.

وقد كان الحُكَّام والولاةُ يعزِّرون من يخالف بمكة، فيحمل فيها السِّلاح مجاهرًا من غير أن يؤذنَ له في ذلك لحاجة[(١١)].

وهو ما تقومُ به حكومة خادم الحرمين الشِّريفين - أيَّده الله - وتحرصُ عليه، حمايةً لأمن هذه البلدة المباركة التي شرَّفه الله تبارك وتعالى بخدمتها ممَّن يريدون العبث بأمن بلاد الحرمين، وترويع الآمنين بها، وبخاصة حُجَّاج وعُمَّار بيت الله الحرام الذين يفدون إلى هذه البلاد معظِّمين لبيته وحرمه.



(١) الحجاج بن يوسف الثقفي، كان أميرًا على الحجّ من قبل بني أميّة، توفي سنة ٩٥.
انظر: الكامل لابن الأثير (٤/٢٢٢).
(٢) أخرجه البخاري (٩٦٦).
(٣) أخرجه مسلم (١٣٥٦).
(٤) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (٩/١٣١).
(٥) تفسير السعدي (ص ١٣٨).
(٦) شرح صحيح مسلم للنووي (٩/١٣٠).
(٧) شرح صحيح مسلم للنووي (٩/١٣١)، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/٤٧٩).
(٨) كشف المشكل لابن الجوزي (٣/١٠٨).
(٩) هو: حسن بن عجلان بن رُميثة الحسني المكي، تولى إمارة مكة على فترات متقطعة، توفي بالقاهرة سنة ٨٢٩هـ.
انظر: العقد الثمين (٤/٨٦).
(١٠) المرجع نفسه (٤/٩٨).
(١١) انظر: النجوم الزاهرة (١٣/١٧٧).

﴿١٠﴾

حراسة المدينتين المقدستين من الدجال

ليست هناك فتنة في الدُّنيا أعظم من فتنة الدَّجال الـذي سـيخرج آخر الزَّمان، ولذلك لم يُبعث نبيٌّ إلا وحذَّر أمَّته منه، وقد جـاء في خبره أنه سيخرج ويطـوف بلـدان العـالم، ويحـالُ بينـه وبـين مكـة والمدينة، فيمرُّ على المدينة يحاول دخولها، فلا يُمكَّن من ذلـك، فيخرج إليه يومئذ رجل من أهل المدينة هو من خير الناس، فيقـول له: أشهد أنَّك الدَّجال الـذي حـدثنا رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنـه. فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلتُ هذا، ثم أحييته أتشـكون في الأمـر؟ فيقولـون: لا. فيقتلـه، ثم يحييـه فيقـول الرَّجـلُ حـين يحييـه: والله ما كنتُ فيكَ قطُّ أشدَّ بصيرةً مـني الآن، فيريـد الـدَّجال أن يقتلـه، فلا يسلَّط عليه(١).

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلاَّ سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ، إِلاَّ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، لَيْسَ لَهُ مِنْ نِقَابِهَا نَقْبٌ إِلاَّ عَلَيْهِ الْمَلائِكَةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَهَا، ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلاثَ رَجَفَاتٍ، فَيُخْرِجُ اللَّهُ كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ**»(٢).

[راوي الحديث] أنس بن مالك، هو: أبو حمزة الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان يتسمَّى بذلك ويفتخر به؛ إذ خدمه عشر سنين، وهو أحد المكثرين من الرواية عنه، كان آخر الصحابة موتًا بالبصرة مات سنة ٩٠، وله مئة سنة (٣).

[غريب الحديث] «نقابها»: جمع نقب، وهو الطريق بين الجبلين(٤). والمقصود: مداخلها وطرقها التي يسلكها الناس.

«صافِّين»: يقالُ: وقفَا صفًا، إذا وقف كلُ واحدٍ إلى جنب صاحبه(٥).

«ترجف»: أصل الرجف الحركة والاضطراب(٦)، والمعنى: يحصل بها زلزلة.

[كلمة الحديث] يُؤكِّد هذا الحديث فضل مكة والمدينة في حراسة الله تبارك وتعالى لهما من فتنة الدَّجال في آخر الزَّمان، فلا يُمكَّنُ من دخولهما لحراسة الملائكة لطرقها ومسالكها ودروبها، ثم تنفي المدينة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - منافقيها، فلا يبقى بها منافقٌ أو كافر إلا خرج لاتِّباع الدّجال.

فانتفاع الساكن بأحد هاتين المدينتين من حماية الله لساكنيهما متعلقٌ بصدق الإيمان، فالمدينتان الفاضلتان يأوي إليهما أهل

الصَّلاح والإيمان، وسكناهما أمانٌ لمن أراد أن يحافظ على دينه، وسلامة عقيدته.

[فوائد الحديث]

من توجيهات الحديث:

١- فضل مكة والمدينة على سائر مدن الأرض(٧).

٢- إعجاز غيبي للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث أخبر عن أمر سيكون قطعًا(٨).

٣- فضل المؤمنين المخلصين من أهل مكة والمدينة(٩).

٤- الترغيب في سكنى مكة والمدينة، وبخاصة في زمن الفتن.

٥- فيه تحفيزٌ لتحقيق أمن مكة الشرعي المأمور به، كما أمَّنها الله قدرًا من فتنة الدّجال.

٦- حماية مكة والمدينة لأهلهما من فتنة الدّجال مشروط بأن يكون المرء صادق الإيمان بالله، وإلّا فإنّ المدينة تنفي المنافقين والكُفّار من ساكنيها.

[تطبيقات عملية]

لعصمة مكة من دخول الدجال، وأنه لا يستطيع الخلاص إليها أحبَّ سكناها، ورغب في الجوار بها ثلةٌ من الناس، فمن ذلك: أنّ عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان ينصح بالإقامة فيها، ولو لم يجد الإنسان بها شيئًا يأكله، إلاّ العضاه(١٠).

وهذا المغيرة بن حكيم الصنعاني سافر إلى مكة أكثر من خمسين سفرًا، صائمًا محرمًا حافيًا، وكان يكثر المقام بمكة، وبها مات. قال جرير: ما رأيت البيت بغير طائف إلاّ يوم مات المغيرة بن حكيم(١١).

(١) انظر: البخاري (١٨٨٢)، ومسلم (٢٩٣٨).
(٢) أخرجه البخاري (١٨٨١) واللفظ له، ومسلم (٢٩٤٣).
(٣) انظر: الاستيعاب (١/١٠٩)، أسد الغابة (١/١٥١)، الإصابة (١/١١١-١١٣).
(٤) النهاية في غريب الحديث (نقب).
(٥) مقاييس اللغة (صف).
(٦) النهاية في غريب الحديث (رجف).
(٧) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤/٥٥١).
(٨) انظر: عمدة القاري (١٠/٢٤٤).
(٩) المرجع نفسه (١٠/٢٤٤).
(١٠) انظر: شفاء الغرام (١/١٧٦ – ١٧٧).
(١١) العقد الثمين (٧/٢٥٤-٢٥٥).

(١١)

الأمن الأبدي لمكة

أراد الله عزّ وجلّ أن تكون مكة بلده المحرَّم الذي يُبنى فيه بيته الحرام ليكون أول بيت وضع لعبادة الله تعالى؛ لذا فقد حماها الله من كل من أراد بها سوءاً.

وفي قصة أصحاب الفيل أكبر شاهد على هذه الحماية والأمن الأبدي لمكة؛ حتى يأذن الله بقيام الساعة.

عن الحارث بن مالك بن بَرْصاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم فتح مكة يقول: «لا تُغْزَى هَذِهِ بَعْدَ الْيَوْمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1].

[راوي الحديث] راوي هذا الحديث عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو: الحارث بن مالك بن قيس الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. المعروف بـ (ابن البرصاء) وهي أمه، صحابي سكن مكة ثم المدينة، له حديث واحد. توفي في آخر خلافة معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين[2].

[غريب الحديث] قوله: «لا تُغْزَى»: نفيٌ جاء بصيغة البناء للمجهول[3].

«هذه»: إشارة إلى مكة - حرسها الله -[4].

«بعد اليوم»: أي بعد يوم فتح مكة[5].

[كلمة الحديث] حدث القتال في مكة من قبل المسلمين، فقاتل بعضهم بعضًا عدَّة مرّات؛ وأشهرُ من قاتل فيها الحجَّاجُ حين حاصر ابن الزُّبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكذلك غُزيت من قبل القرامطة؛ إذن الحديث يُخبرُ أنّ مكة بعد أن فتحها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تُغزى من قبل الكفَّار، وأنَّها لا تعود دارَ كفرٍ، فيحتاج المسلمون أن يغزوها لقتال أهلها مرَّة أخرى على الإسلام.

[فوائد الحديث] ومن فوائد الحديث:

١- أن أهل مكة لا يرجعون إلى الكفر كلهم، فلا يُغْزَون على كفرهم[6].

٢- مكة آمن بلاد الإسلام إلى يوم القيامة.

٣- مكة أفضل بيئة دائمة لأهل الإيمان.

٤- تحفيز أهل مكة والوافدين إليها على الاستقامة فيها.

٥- إغراء لأهل مكة بشكر النعمة.

٦- الترغيب في سكنى مكة.

٧- آية باهرة للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

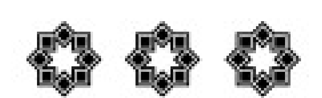
٨- فضل مكة ومكانتها عند الله.

وقد ذكر العلماء: أنه إذا دخل مكةَ قومٌ من البغاة ونحوهم، واستولوا عليها؛ فإنه يجوز غزوهم ومحاربتهم فيها؛ حتى يرجعوا للحقِّ(٧).

[تطبيقات عملية] وكان سبب خروج ريحانة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة، خوفَ أن تغزى بسببه.

قال ابن عباس: استشارني الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الخروج إلى العراق، فقلت له: لولا أن يزري ذلك بي وبك؛ لنشبت بيدي في رأسك. فقال الحسين: لئن أقتل بمكان كذا وكذا؛ أحبّ إليَّ من أن يستحل بي مكة.

قال ابن عباس: فذلك الذي سلّى بنفسي عنه(٨).



(١) أخرجه أحمد (٤/٣٤٣)، والترمذي وصححه (١٦١١)، وصححه الحاكم في المستدرك (٣/٧٢٧)، والألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٢٧).
(٢) انظر: الإصابة (١/٥٩٦).
(٣) تحفة الأحوذي (٥/١٩٥).
(٤) المرجع نفسه (٥/١٩٥).
(٥) المرجع نفسه (٥/١٩٥).
(٦) انظر: شرح معاني الآثار (٣/٣٢٦).
(٧) انظر: المحلى لابن حزم (١١/٩٦).
(٨) أخبار مكة للفاكهي (٢/٢٦٥).

(١٣)

التعظيم حين يسكن الوجدان

من جوانب التعظيم التي يحسن تفعيلها بين عامة المسلمين ولا سيما المكيين، ما يمكن تسميته بالتعظيم الوُجداني. وهو: ما توعز به الوُجدان باعتباره تعظيمًا لمكة ممَّا لم يرد في الشرع من محاسن العادات، بشرط عدم مخالفته الصريحة للنصوص، ولعلّ فيما روي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ الحمامَ كان يغشى بالحرم رحلَه وطعامَه وثيابَه؛ فلا يطرده![1]، ما يعزّز ذلك. فالعناية بحَمام الحرم ورعايته من العادات الحسنة الناتجة عن التعظيم. ومثل: أن يجد المرءُ في نفسه حرجًا من إلقاء المناديل من نافذة سيارته، ويفضِّل إلقاءها موضع القدمين تعظيمًا لطهارة أرض مكة.

عن المسور بن مخرمة ومروان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قالا: خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زمن الحديبية حتّى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ». فوالله ما شَعَر بهم خالدٌ حتّى إذا هُم بقَتَرة الجيش فانطلق يركض نذيرًا لقريش، وسار النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتّى إذا كان بالثنيَّة التي يُهْبطُ عليهم منها بَرَكَتْ به راحلتُه. فقال الناسُ: حَلْ حَلْ. فألَحَّتْ، فقالوا: خلأتِ القصواء. فقال النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ». ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». ثم زجرها فوثبتْ ... الحديث[٢].

[رواة الحديث]

المسور بن مخرمة، هو: أبو عبد الرحمن الزهري، له ولأبيه صحبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. ولد بمكة بعد الهجرة بسنتين، وقدم به أبوه المدينة عقب ذي الحجة سنة ثمان وهو أصغر من ابن الزبير بأربعة أشهر، وقبض النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ابن ثمان سنين. كان فقيهًا من أهل الفضل والدين، توفي بمكة سنة ٦٤، وهو ابن ٦٢ سنة[٣].

أمّا مروان؛ فهو ابن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو عبد الملك الأموي، المدني. خرج على أمير المؤمنين عبد الله ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في آخر سنة ٦٤، ولم يتمَّ له الأمر، ومات سنة ٦٥، لا تثبت له صحبة[٤].

[غريب الحديث]

قوله: «الغميم»: وادٍ بين مكة والمدينة، يبعدُ عن عسفان بثمانية أميال باتجاه مكة[٥].

«القَتَرة»: غَبرة الجيش[٦].

«حَلْ حَلْ»: بفتح المهملة وسكون اللام، كلمة تقال للناقة إذا تركت السير[٧].

وقوله: «خلأت»: أي: بَرَكت، فلم تبرح مكانها[٨].

«الحديبية» بالتصغير: قرية تقع غرب مكة على بعد ٢٢ كيلو على الطريق إلى جدة، واسمها الآن: الشميسي[٩].

«طليعة»: مقدمة الجيش[١٠].

«الثنية»: في الأصل كل طريق في الجبل، وهي هنا: موضع بين مكة والمدينة من طريق الحديبية[١١].

«فألحَّت» بتشديد الحاء المهملة، أي: تمادت على عدم القيام؛ وهو من الإلحاح[١٢].

«القصواء»: اسم ناقة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١٣].

«خُطَّة» بضم الخاء المعجمة، أي: أمراً واضحًا في الهدى والاستقامة[١٤].

«حُرُمات»: الحُرُمات، جمع: حرمة، كظُلْمة وظُلُمات. يريد: حرمة الحرم، وحرمة الإحرام، وحرمة الشهر الحرام. والحرمة: ما لا يحل انتهاكه[١٥].

[كلمة الحديث] عزم النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السنة السادسة من الهجرة أن يدخل البلد الحرام معظِّمًا له، ملبِّيًا لله تعالى بالعمرة، فخرج في ألفٍ وخمس مائة رجلٍ من أصحابه، قاصدين البيت الحرام، معظمين له، لا يريدون قتالاً في بلده المحرّم.

وعند اقترابه من مكة علم أن قريشًا علمتْ به، فأراد أن يباغتهم، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها؛ بركت بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راحلته، وأبتْ أن تنطلق، فعلم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّ الله تبارك وتعالى قد حبَسَها، كما حَبَس الفيل من قبلُ تعظيمًا لبلده الحرام.

[فوائد الحديث]

ممّا يؤخذ من الحديث:

١- في انحباس ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المسير عِظَة وعِبْرة في تعظيم البلد الحرام، فقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يبيِّن لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولصحابته الكرام ترك القتال في الحرم؛ تعظيمًا لبلده الحرام.

٢- تعظيمه عليه الصلاة والسلام لحرمات الله طاعةً لله عزّ وجلّ؛ لأنه فهم عن الله إبلاغ الأعذار إلى أهل مكة، ولذلك قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**والذي نفسي بيده لا يسألوني خطَّة يعظِّمون فيها حرمات الله؛ إلا أعطيتهم إيَّاها**» (١٦).

٣- عِظَم حُرمة مكة عند الله عزّ وجلّ، وعند رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٤- المعنى في التمثيل بحبس الفيل أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لو دخلوا مكة لوقع بينهم وبين قريش قتال في الحرم، وأريق فيه دماء وكان منه الفساد، ولعل الله سبحانه وتعالى قد سبق في علمه، ومضى في قضائه، أنه سيُسْلِم جماعة من أولئك الكفار، وسيخرج من أصلابهم قوم مؤمنون، فلو استبيحت مكة لانقطع ذلك النسل، وتعطلت تلك العواقب، والله أعلم (١٧).

٥- الإشارة منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى اعتبار كل خصلة نبيلة، أو عمل شريف يؤكد على هذا المعنى العظيم: تقديس البلد الحرام، كما في قوله: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**». فالمشركون، والبغاة - فضلًا عن المسلمين - إذا طلبوا أمرًا يعظمون فيه حُرمةً من حرمات الله تعالى، أجيبوا إليه، وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن مَنعوا غيره. فيعاونون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويمنعون ممّا سوى ذلك(١٨).

[تطبيقات عملية]

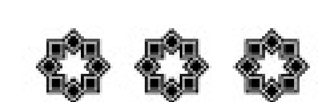
وممّا حفظ لنا التاريخ من الأعمال التي تدل دلالة بيّنة على تعظيم هذا البيت: كسوة الكعبة. فقد تتابع الولاة وأصحاب الأموال عليها كلٌ بحسبه، وممّن نال هذا الشرف: الصحابي الجليل معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقد ذُكِر أنه أول من كسا الكعبة الديباج مع القباطي. وبعث بذلك إلى شيبة بن عثمان، وأمره أن يجرد الكعبة ويغسلها ويطيبها ويلبسها ما بَعَث.

وكان معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يرسل للكعبة بالطيب والمجمر والخَلُوق في كل عام، وأخدم الكعبة عبيدًا بعث بهم إليها. وتبعه الولاة في ذلك، وأجرى الزيت والقناديل من بيت المال للمسجد الحرام(١٩).

كل ذلك من محاسن العادات التي أقرتها عمومات الشريعة؛ للمحافظة على هذه البقعة المباركة.

ومما يؤيِّد هذا الأمر إبقاؤه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لسنة الإشعار والتقليد(٢٠)؛ لدلالتها على تعظيم البيت قبل الإسلام، فتقليد النبيّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه البُدْن هـديًا للكعبـة الشـريفة، فيـه تعظـيم للبيت الحرام. ولذلك حين توجَّه الحُلَّيس الكناني - زعيم الأحابيش التي تُمَثِّل ثلثي قوة قريش - للقاء النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الحديبية، واستقبلته البُدْنُ وقد أشْعِرت أسنمتها، عَظُـمَ أثـرُ ذلـك في نفسـه، وقال: (سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدُّوا عن البيت) [٢١].



(١) انظر: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم (٢/١١٢).
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١).
(٣) الاستيعاب لابن عبد البر (٣/١٣٩٩)، والإصابة في تمييز الصحابة (٦/١١٩).
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/٤٧٦).
(٥) معجم البلدان (٤/٢١٤)، معجم ما استعجم (٢/٩٥٦).
(٦) النهاية في غريب الحديث (قتر).
(٧) فتح الباري (٥/٣٩٤).
(٨) تاج العروس (خلأ).
(٩) معجم البلدان (٢/٢٢٩).
(١٠) جمهرة اللغة لابن دريد (طلع).
(١١) معجم البلدان (٢/٨٥)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (ثنية)
(١٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (لحح)، فتح الباري لابن حجر (١/٨٠).
(١٣) الحيوان للجاحظ (١/١٦٠).
(١٤) تاج العروس (خطط).
(١٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (حرم).
(١٦) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٨/١٢٧).
(١٧) حياة الحيوان الكبرى (٢/٣١٤)، وانظر: عمدة القاري (١٤/٨).
(١٨) زاد المعاد (٣/٣٠٣).
(١٩) منائح الكرم في أخبار مكة ووُلاة الحرم (٢/٧).
(٢٠) التقليد: أن يعلق في عنق الأنعام شيء، ليعلم أنها هدي. والإشعار: أن يطعن في أسنمة الجمل أو ظهور البقر بمبضع، أو حديدة، حتى يسيل منه الدم، ثم يلطخ الهدي به. وقيل له: إشعار؛ لأنه جُعل علامة للهدي.
انظر: الزاهر في غريب ألفاظ فقه الشافعي (ص:١٧٦)، والمطلع على أبواب الفقه (ص:٢٠٦).
(٢١) السيرة النبوية لابن هشام (٤/٢٨٠).

(١٣)

قداسة وإجلال .. أمنٌ وأمان

تعظيم البيت أمانة عظمى، ومسؤولية كبرى على عموم المسلمين؛ لكنها تتأكد في حقِّ الراعي الذي منحه الباريّ المحافظة على حقوق البلاد والعباد.

فقيامه بهذه المهمة وحفاظه عليها، قيامٌ للدِّين، ووعدٌ من ربّ العالمين بفلاح الأمة وتمكينها.

عن عيّاش بن أبي ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لاَ تَزَالُ هَذِهِ الأُمَّةُ بِخَيْرٍ مَا عَظَّمُوا هَذِهِ الْحُرْمَةَ حَقَّ تَعْظِيمِهَا، فَإِذَا تَرَكُوهَا وَضَيَّعُوهَا هَلَكُوا»[١].

[راوي الحديث] عياش بن أبي ربيعة بن المغيرة القرشي، أسلم قبل أن يدخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دار الأرقم، هاجر الهجرتين، واستشهد باليمامة، وقيل: باليرموك، وقيل: مات سنة ١٥[٢].

[غريب الحديث] قوله: «هذه الحُرْمة»: يعني الكعبة والحرم[٣].

[كلمة الحديث] لا تزال هذه الأمَّة بخير وعافية ومنَعَةٍ؛ حتى تضيعَ في نفوسهم هيبةُ وعظمةُ هذه الكعبة المشرَّفة، فالبيتُ الحرام أولُ بيتٍ وُضِع في الأرض للعبادة، فانصرافُ الناس عنها إيذانٌ بهلاكهم وذهاب الخير عنهم.

قال ابن القيّم في مقام ذكر خصائص البيت المبارك الذي بناه إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ومنها: أنه سبحانه جعل آثارهم في الأرض سببًا لبقاء العالم وحفظه، فلا يزال العالم باقيًا ما بقيت آثارهم فإذا ذهبت آثارُهم من الأرض فذاك أوان خراب العالم. قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٩٧]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسيرها (لو ترك الناس كلّهم الحجّ لوقعت السّماء على الأرض). وقال: لو تركَ النَّاسُ كلهم الحجَّ لما نُظِرُوا[٤]، أي: لعُجِل لهم الهلاكُ، ولم يمهلوا.

[فوائد الحديث] وللحديث فوائد مباركة:

١- تعظيم الأمة للبلد الحرام، وقاية لها من الفتن العامّة[٥].

٢- الجزاء من جنس العمل، فإذا أهانت الأمة ما يستحق التعظيم عاقبها الله بالذُّل والهوان جزاءً وِفاقًا.

٣- يكون تعظيم البلد الحرام بما جاء في كتاب الله، وفي صحيح سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرًا ونهيًا.

٤- حرص رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمّته بذكر أسباب النجاة وأسباب الهلكة.

٥- يؤخذ منه أن تعظيم البلد الحرام أصلٌ عظيمٌ وشعيرة ذات تأثير على الناس كلهم؛ لأنها واجبة على المسلمين جميعًا.

٦- يؤخذ من الحديث ضرورة التربية على تعظيم الكعبة وتعظيم البلد الحرام.

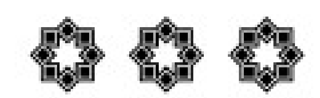
[تطبيقات عملية]

وعناية الأمراء والحكّام بالبيت الحرام من الأمور التي ساهمت في تعزيز مهابة البيت وإجلاله في نفوس الناس: فقد تتابعوا على إرسال الطيب والمجمر والخلوق إلى الكعبة، وأخدموها العبيد والغلمان(٦).

ومن جانب آخر كان العلماء يعززون هيبة وقداسة مكة في نفوس الناس بتعليم خصائصها التي اختصّها الله دون غيرها من بلاد الله؛ فقد حدَّث الوليد بن سعد بن الأخرم أنه كان مع عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بمكة فرأى دينارًا ملقًى. قال: فذهبت لآخذه. فضرب عبد الله يدي، وأمرني بتركه(٧).

وما زال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يعلم طلابه، ومن حوله تعظيم وتقديس البلد الحرام، فقد كان يطوف ذات مرة بالبيت وبصحبته مجاهد، فمرَّا بحُقَّة فيها دُرَّة، فلم يعرضا لها ولم يأخذاها(٨).

ولمَّا تولى الخليفة المهدي زمام الحكم، أمر واليه على مكة بنفي نفر من المغنّيين، ومنع ما فيها من الغناء، وأخرج ما فيها من الرجال المتشبهين بالنّساء، والنّساء المتشبهات بالرجال، ومنع فيها لعب الشطرنج، وغيره من الأمور التي تجرّ إلى اللّهو والطرب، وألزم الحَجَبة - أي: حجبة الكعبة - إجلالها وتوقيرها وتطهيرها للزائرين، وفتح بابها بالسكينة والخشوع، وزجر النساء عن الخروج إلى المسجد متعطّرات(٩).



(١) أخرجه أحمد (٣٤٧/٤)، وابن ماجه (٣١١٠) واللفظ له، والحديث حسَّنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٤٩/٣)، وضعَّفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه (٦٦٤).

(٢) الاستيعاب (١٢٣٠/٣)، أسد الغابة (٣٢٠/٤)، الإصابة (٧٥٠/٤).

(٣) الاستيعاب (١٢٣٢/٣).

(٤) جِلاء الأفهام (٣١٣-٣١٤).

(٥) انظر: فتح الباري (٤٤٩/٣).

(٦) منائح الكرم (٧/٢).

(٧) انظر: أخبار مكة للفاكهي (٤٧/٣).

(٨) المرجع نفسه (٤٨/٣).

(٩) انظر: تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام (٦٠٦/٢-٦٠٧).

(١٤)

بركة الطعام في البلد المبارك

لما قدم إبـراهيم الخليـل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأهلـه هـاجر وولـده إسماعيل علـيهم السـلام، وتـركهم في مكـة وهـي وادٍ قفـرٌ؛ دعـا بدعوات صالحات لهذا البلد وأهله.

وكان لتلك الدعوات المباركات أثرها البيِّن في مكة وأهلها على مرِّ الأزمان: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم].

عن عبد الله بن زيد بن عاصم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لأَهْلِهَا، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَإِنِّي دَعَوْتُ فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا بِمِثْلَيْ مَا دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ لأَهْلِ مَكَّةَ»(١).

[راوي الحديث] عبد الله بن زيد بن عاصم بن كعب الأنصاري المازني، أبو محمد، صحابي شهير، اشترك مع وحشي بن حرب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في قتل مسيلمة الكذاب باليمامة، استشهد بالحرة سنة ٦٣(٢).

[غريب الحديث] قوله: «صاعهم»: الصاع مكيال تدور عليه بعض أحكام المسلمين ويساوي أربعة أمداد(٣).

«مُدِّها»: المُدُّ مكيال. وهو ملء كفي الإنسان المعتدل إذا ملأهما، ومَدَّهما (٤).

[كلمة الحديث] أخبر النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أنَّ إبراهيمُ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ حرَّم مكة بتحريم الله تبارك وتعالى، ودعا لأهلها بالبركة، وأعلن النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حرمةَ المدينة فلا يُصادَ ما بين لابَتيها، ودعا لأهلها بمثلي ما دعا إبراهيمُ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لأهل مكة في البركة. ففي هذا إثبات لفضل المدينة، وأنها تشاركُ مكة في بركة الرِّزق وفي حرمة الصيد فيها، ولكن مكة أفضل منها.

وفي دعاء إبراهيم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ببركة الأرزاق تذكيرٌ لساكني مكة والوافدين إليها بأنّ إبراهيم الخليل عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ كما دعا لمكة وأهلها بالبركة، فإنه حرَّم مكة، وعظَّم حقَّها.

قال جار الله الزمخشري عند قول الله تبارك تعالى: ﴿وَٱرْزُقْهُم

مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ [إبراهيم]: لا جرم أنَّ الله عزَّ وجلَّ أجاب دعوته، فجعله حرمًا آمنًا تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقًا من لدنه، ثم فضَّله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف، وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارًا، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبةَ التي يريكها الله بوادٍ غير ذي زرع، وهي اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد، وليس ذلك من آياته بعجيب، متَّعنا الله بسكنى حرمه، ووفقنا لشكر نعمه، وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ(٥).

[فوائد الحديث]

وفي الحديث فوائد:

١- إثبات حرمة مكة، وقد ثبت أن حرمتها كانت منذ خلق السماوات والأرض، وأمّا تحريم إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لها فمعناه: أنه أظهر تحريمَها، وأعلنه للناس(٦).

٢- أنّ المدينة حرم؛ يحرم الصيد فيها وقطع أشجارها(٧).

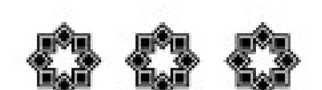
٣- اختصاص أهل مكة بدعوة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يبارك الله لهم في اللحم والماء، ولذلك إذا اقتصر أحدٌ بمكة على أكل اللحم والماء فقط؛ لم يضرَّه ذلك، بخلاف غيرها من البلاد.

٤- بركة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على الناس في دينهم ودنياهم.

٥- بركة الخليل إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على مكة وأهلها.

٦- رؤية الأرزاق بمكة مدعاةٌ لتذكر الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وتذكر تحريمه للبلد.

٧- تحفيز أهل مكة لشكر نعمة الله عليهم بسكناها.



(١) رواه مسلم (١٣٦٠).
(٢) انظر: الإصابة (٤/٩٨).
(٣) القاموس المحيط (صاع).
(٤) المرجع السابق (مد).
(٥) الكشاف (٢/٥٢٥).
(٦) انظر: فتح الباري (٣/٤٤٠).
(٧) شرح صحيح مسلم للنووي (٩/١٣٤).

(١٥)

خاصية الجوار

من أخصِّ ما يمتازُ به الساكنُ في مكة، أو القادم إليها المجاور بها: طوافُه بهذا البيت متى شاء، في أيِّ ساعة من ليل أو نهار؛ لهذا جاور بها خلق كثير، وسكنها من العلماء وأهل الفضل خلقٌ كثيرٌ. وذلك للاستمتاع بهذا البيت بالطواف والصلاة، كما ذُكر عن أبي بكر بن عبد الرزاق الدُّكالي المالكي[١]: أنه جاور بمكة بضعًا وعشرين سنة، ملازمًا للصلاة والطواف والصيام بحيث يستغرق فيها أوقاته[٢].

عــن عبــد الله بــن عمــر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قــال : قــال رســول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ : «اِسْتَمْتِعُوْا بِهَذَا البَيْتِ فَقَدْ هُـدِمَ مَـرتين، ويُرْفَـعُ في الثالثةِ»[٣].

[راوي الحديث] عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوى، من أئمة الصحابة وعلمائهم، ومن العُبَّاد الكبار، أقام بعد النّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ستين سنة، يُفَتِي الناس في الموْسم وغير ذلك. مات سنة ٧٣، وله ٨٧ سنة[٤].

[كلمة الحديث] يُحفِّز النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المسلمين، وبخاصّةٍ أهل مكة ومن جاورها في مبادرة الأنفاس عند البيت الحرام صلاةً وطوافًا، فقد هُدِم مرتين، ويوشك أن يُرفع في الثالثة فلا يصل إليه أحدٌ بصلاة أو طواف أو استلامٍ للحجر الأسود، وتقبيله.

وقد قيل: المراد برفعه في الثالثة: رفع بركته بهدم ذي السويقتين له. وأمّا هدمه في المرتين السابقتين، فقيل: هدمها عند الطوفان، وهدمُ قريش حين جددت بنيانه[٥].

[فوائد الحديث] ولذلك كان من فوائد الحديث:

١- الأمر باستغلال الأعمار لساكني هذا البيت وزوّاره، فالاستمتاع به يعني: إعمار البيت بما خصَّه الله به من العبادات كالطواف والحج والاعتمار[٦].

٢- أن هذا البيت غايته القصوى، ومهمته الكبرى التي وُضع لأجلها هي عبادة الله عزّ وجلّ بكلّ ما أذن الله فيه، ومن أَجَلِّ ذلك الطواف، فقد ورد عن عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: (استكثروا

من الطواف بهذا البيت ما استطعتم، من قبل أن يحال بينكم وبينه)[٧].

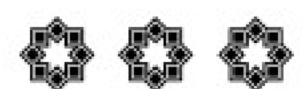
[تطبيقات عملية] ولقد اغتنم السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مُقامهم بجوار هذا البيت بكافة أنواع العبادات التي اختصت به، كما ذُكر عن مفتي مكة وعالمها الجليل عطاء بن أبي رباح أنه أقام في المسجد أربعين سنة يصلي بالليل ويطوف[٨].

وانقطع بمكة خلق كثير، منهم: محمد بن عبد الله بن زكريا البَعداني[٩]، فقد جاور الحرمين نحو ثلاثين سنة، على طريقة حسنة من العبادة وسماع الحديث والاشتغال بالعلم[١٠].

وجاور ابن القيم بمكة، وكانت له أحوالٌ عجيبةٌ في الاستشفاء بماء زمزمَ، والانقطاع بها للعبادة والتأليف والتصنيف[١١].

قال عنه ابن رجب: حج مرات كثيرة، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمرًا يتعجب منه[١٢].

ومنهم: مهنّا بن أبي بكر المصري[١٣]، فقد سكنها أربعين سنة أو أزيد، وكان فيها صاحب خير وإحسان لجماعة من الفقراء[١٤].



---

(١) هو: أبو بكر بن عبد الرزاق الدكالي، نزيل مكة، مات شهيدًا مبطونًا في رجب سنة ٨٢٧ بمكة، ودفن بالمعلاة.
انظر: العقد الثمين (٨/ ١٤)، الضوء اللامع (١٢/ ٤٧).

(٢) العقد الثمين (٨/ ١٤).

(٣) أخرجه ابن خزيمة (٤/ ١٢٩)، وابن حبان (١٥/ ١٥٣).

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ١٨١)، وأسد الغابة (٣/ ٣٤٧).

(٥) انظر: فيض القدير (١/ ٦٣٩)، والتيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (١/ ٣٠٠).

(٦) فيض القدير (١/ ٦٣٩).

(٧) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥/ ١٣٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٢٦٩).

(٨) أخبار مكة للفاكهي (٢/ ٣٢١).

(٩) هو: محمد بن عبد الله بن زكريا البعداني، نزيل الحرمين الشريفين، كان خيِّرًا صالحًا كثير العبادة، مات بالمدينة سنة ٨١٠.
انظر: العقد الثمين (٢/ ٥٢).

(١٠) العقد الثمين (٢/ ٥٢).

(١١) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٢٤٦، ٢٥٠)، وزاد المعاد (٤/ ٣٩٣)، ومدارج السالكين (١/ ٥٨).

(١٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤٨).

(١٣) هو: مهنا بن أبي بكر المصري، نزيل مكة، وشيخ رباط الخوزي، مات في آخر ربيع الأول سنة ٨٢٠.
انظر: العقد الثمين (١٠/ ١٧٤)، والضوء اللامع (٧/ ٣١٤-٣١٥).

(١٤) العقد الثمين (٧/ ٣١٥).

(١٦)

الأدب مع قبلة المسلمين

القبلة لها شأن كبير عند الله وعند عباده المسلمين؛ ولهذا كان لها في ديننا آداب وأحكام يَحسُنُ بالمسلم التخلق بها ومراعاتها في حياته. قال ابن القيِّم: ومن خواصِّها أيضًا: أنه يحرم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة دون سائر بقاع الأرض، وأصحُّ المذاهب في هذه المسألة: أنه لا فرق في ذلك بين الفضاء والبنيان، لبضعة عشر دليلاً قد ذُكِرَت في غير هذا الموضع، وليس مع المفرِّق - أي: بين الفضاء والبنيان - ما يقاومها البتة، مع تناقضهم في مقدار الفضاء والبنيان، وليس هذا موضع استيفاء الحجج من الطرفين [1].

عن أبي أيوب الأنصاريّ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إِذَا أَتَى أَحَدُكُمْ الْغَائِطَ فَلاَ يَسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ، وَلا يُوَلِّهَا ظَهْرَهُ؛ شَرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا»[٢].

[راوي الحديث] أبو أيوب، هو: خالد بن زيد بن كليب الأنصاري الخزرجيّ، شهد العقبة والمشاهد كلّها مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، توفي مجاهدًا في غزاة القسطنطينية، ودفن تحت أسوارها سنة ٥٠. وقيل: بعدها[٣].

[غريب الحديث] الغائط: المكان المنخفض والمطمئن من الأرض، ومنه قيل لموضع قضاء الحاجة: الغائط؛ لأن العادة أن الحاجة تقضى في المنخفض من الأرض حيث هو أستر له[٤].

[كلمة الحديث] لا يجوز استقبال القبلة، ولا استدبارها أثناء قضاء الحاجة، ولا فرق بين الفضاء والبنيان في النهى عن استقبال القبلة أثناء قضاء الحاجة ولا استدبارها، وممّا يؤيد العمومَ النهيُ عن البصق تجاه القبلة في البنيان والمسجد وخارجه، فإنَّ البصق تجاه القبلة في البنيان منهيٌ عنه محرمٌ[٥]، فالبول والغائط تجاهها محرمٌ من باب أولى.

وهذا الفهم أكثر تعظيمًا وتقديسًا لبيت الله الحرام، لا سيما وهو فهم أبي أيوبَ راوي الحديث، قال ابن بطّال: ويحتمل أن يكون النهى عن ذلك - والله أعلم - إكرامًا للقبلة، وتنزيهًا لها[٦]، أي: عامًّا سواء في البنيان أو في الخلاء.

وقوله: «شرِّقوا أو غرِّبوا»: يفهم منه أن الانحراف اليسير لا يكفي، فيجب الانحراف الكامل إلى جهة الشرق أو الغرب، وهو

خطاب لأهل المدينة، ومن في حكمهم كالشام واليمن، ومن كانت قبلته إلى المشرق أو إلى المغرب عليه أن يتجه إلى جهة الشمال أو الجنوب، كأهل مصر ونجد.

[فوائد الحديث]

ومن فوائد الحديث:

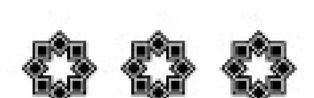
١- تعظيم جهة القبلة، وتكريمها والنهي عما يلزم منه عدم ذلك[٧].

٢- الكناية عن المستقذرات بألفاظ غير شنيعة عند النطق بها[٨].

[تطبيقات عملية]

ومن أمثل النماذج العملية لهذا الحديث: فعل أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راوي الحديث حين أتى الشّام فوجد مراحيضها قد بُنيت تجاه القبلة، فكان ينحرف عن القبلة ويستغفر الله تعالى، قال أبو أيوب الأنصاريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (قدمنا الشَّامَ، فوجدنا مراحيضَ قد بُنيت قِبَلَ القبلة، فننحرفُ عنها، ونستغفر الله)[٩].

وقوله: (فننحرف عنها) ليس حكاية فعله فقط، بل عن فعل الصحابة الذين كانوا معه.



(١) زاد المعاد (١/ ٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٤١) واللفظ له، ومسلم (٣٨٨).

(٣) انظر: الاستيعاب (٢/ ٤٢٤)، أسد الغابة (٢/ ٩٤)، الإصابة (٢/ ٢٣٤).

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث (غوط).

(٥) انظر: فتح الباري (١/ ١٠٦).

(٦) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/ ٢٣٦).

(٧) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (١/ ٤٥٨).

(٨) انظر: فتح الباري (١٠/ ١٧٧).

(٩) أخرجه البخاري (٣٩٤) واللفظ له، ومسلم (٢٦٤).

(١٧)

فضيلة الأدب مع القبلة

قال الإمام طاووس[١] بن كيسان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حقٌّ لله على كل مسلم أن يُكْرِمَ قبلةَ الله، فلا يستقبل منها شيئًا). يعني: في غائط، أو بول[٢].

وهذا أدبٌ نبويٌ كريمٌ يجبُ على المسلم في أيِّ بُقعة كان على وجه الأرض أن يتمثل به عند قضاء الحاجة إكرامًا لقبلة المسلمين، سواءٌ كان في البنيان أو في الخلاء، وهو من تعظيم شعائر الله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ لَمْ يَسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ، ولم يَسْتَدْبِرْهَا في الغَائِطِ؛ كُتِبَ لَهُ حسنةٌ، ومُحِيَ عنه سَيِّئةٌ» [٣].

[كلمة الحديث] تعظيم مكة ومشاعرِها ليس مقتصرًا على من كان بها فحسب، بل مأمورٌ بالمشاركة في تعظيمها كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها، ويثاب على ذلك.

ومنه: تنزيه البيت الحرام عن استقباله حال قضاء الحاجة، فهذا النوع من التعظيم بإمكان كل مسلم أن يلتزم به في أي مكان كان.

[فوائد الحديث] فأفاد الحديث:

١- أن من لم يستقبل القبلة، ولم يستدبرها في الغائط فإنه يكتب له حسنة، ويمحى عنه سيئة؛ أي: أنه يثاب. وحكمُ البول في ذلك حكمُ الغائط.

٢- ينبغي لمن أراد قضاء الحاجة أن يتحرّى القبلة فينحرف عنها.

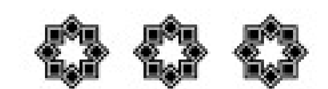
٣- تحصيل الأجر مرتبطٌ بالنية في الانحراف من أجل القبلة.

٤- تضمن الحديث التوجيه بمراعاة ذلك عند بناء الكُنف[٤].

٥- الحديث فيه دلالة على شمولية العبادة.

[تطبيقات عملية] وهذا الأدبُ النبوي الكريم نعمةٌ يتحدَّث بها من أُكْرِم عليه بها، قال عمر بن عبد العزيز: (ما استقبلتُ القبلة ولا استدبرتها ببول ولا غائط منذ كذا وكذا) [٥].

وقال الإمام إبراهيم النخعيّ - وهو يصف حال من كان قبله مـن التابعين الذين أخذوا عن الصّحابة هذا الأدب -: (كانوا يكرهون أن يستقبلوا القبلة بغائط، أو بول، أو يستدبروها، ولكن عن يمينها، أو عن يسارها) [٦].



---

(١) طاووس بن كيسان الحميري مولاهم اليماني ثم المكي، أبو عبد الرحمن، أحد الأئمة الأعلام، وكان من سادات التابعين، توفي سنة ١٠٦.
انظر: العقد الثمين (٥/٥٨).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١/١٥١).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢/٨٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٩٨).

(٤) أي دورات المياه.

(٥) السنن الكبرى للبيهقي (١/٩٢)

(٦) مصنف ابن أبي شيبة (١/١٥٠).

(١٨)

تعظيم شأن القبلة

إنّ تعظيم هذه الجهة التي يستقبلها النَّاس في اليوم أكثر من خمس مرّات يتجاوز كون الإنسان في صلاة أو في مكانٍ دون مكان، فيشمل كل الأحوال وكل الأزمنة.

وإنَّ استشعار هذه العظمة في النفس، يجعل الإنسان مراعيًا الأدبَ مع هذه الحُرمة حتى في أبسط عاداته البشرية مثل: البصاق.

عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَفَلَ تُجَاهَ الْقِبْلَةِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَفْلُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ»[(١)].

[راوي الحديث] راوي الحديث، هو: حذيفة بن اليمان، واسم اليمان حُسيل، ويقال: حِسْل العبسي، حليف الأنصار، صحابي جليل من السابقين، مات في أول خلافة عليٍّ سنة ست وثلاثين[(٢)].

[غريب الحديث] قوله: «تفل»: التفل: نفخ معه أدنى بزاق، وهو أكثر من النفث[(٣)].

«تُجاه»: جهةَ وناحيةَ[(٤)].

[كلمة الحديث] أشار عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى أن الغالب في (التُّفال) هو التحقير والامتهان؛ لأنه مُسْتَقْذَر عند الناس وإن كان طاهرًا. ولأنّ القبلة شأنها عظيم عند الله تبارك وتعالى نُهي المسلم عن إلقاء تفله - وهو حاضر الذِّهنِ - جهة الكعبة[(٥)].

وهذا النهي عامٌ في المسجد وخارجه، ولا شك أن فعل ذلك في المسجد أقبح وأشنع عُرفًا وشرعًا، كما أنه من المصلي داخل الصلاة أفظع من ذلك كله[(٦)]!

[فوائد الحديث] ومن فوائد الحديث:

١- عظم مكانة القِبلة عند الله عزّ وجلّ[(٧)].

٢- النهي والتحذير من امتهان قبلة المسلمين[(٨)].

٣- عقوبة خاصة لكل من تعمّد التفل تُجاه القبلة.

٤- الجزاء من جنس العمل، فإنّ من أهان القبلة يُهان على

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٢٤) واللفظ لـه، وصـححه ابـن خزيمـة (٢/٦٢)، وابـن حبان (٤/٥١٨)، والألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٢).

(٢) انظر: الاستيعاب (١/٩٨)، أسد الغابة (١/٢٤٧)، الإصابة (١/٢١٦).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (تفل).

(٤) تاج العروس من جواهر القاموس (وجه).

(٥) انظر: شرح الزرقاني على موطأ مالك (١/٥٥٦).

(٦) انظر: فتح الباري (١/٦٠٦)، وعمدة القاري (٤/١٥٠).

(٧) انظر: فتح الباري لابن حجر (١/٥٠٨).

(٨) المرجع نفسه.

(٩) تفسير الطبري (٣/١٧٢).

(١٩)

قبلة المسلمين أحياءً وأمواتًا

فرض الله الصلوات الخمس على المسلمين في اليوم والليلة، فلا تكاد تمضي على هذه الدُّنيا ثانية واحدة دون أن يكون فيها راكعٌ لله تعالى أو ساجد أو قائم، يتَّجه بجسده وقلبه وروحه تجاه هذا البيت الحرام.

قال ابن عبد البر: وحسبك بمكة أن فيها بيت الله الذي رضي لعباده على الحط لأوزارهم وغفران ذنوبهم أن يقصدوه مرة واحدة في أعمارهم، ولم يقبل من أحد صلاة إلا باستقبال جهته بصلاته إذا كان عالمًا بالجهة قادرًا على التوجُّه إليها، فهي قبلة أهل دينه أحياءً وأمواتًا (١).

عـن أسـامة بـن زيـد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قـال: دخلـتُ مـع رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البيتَ، فجلس، فحَمِدَ الله وأثنى عليه، وكبّر وهلّل، ثم مَالَ إلى ما بين يديه من البيت، فوضع صدرَه عليه، وخدَّه ويديه، ثم كبَّر وهلَّل ودعا، فعل ذلك بالأركان كلها، ثم خرج فأقبَل على القبلةِ وهو على الباب، فقال: «هَـذِهِ القِبْلَة، هَـذِهِ القِبْلَة»[٢].

[راوي الحديث] أسامة، هو: أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، يُكْنى أبا محمد، ولد في الإسلام، ومات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وله عشرون سنة، توفي في أواخر خلافة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمدينة سنة ٥٤[٣].

[كلمة الحديث] يروي أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ درسًا من دروس التعظيم للبلد الحرام، فقد حرص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ينظر بنفسه ما يصنع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داخل البيت من الإجلال والتقديس لله تعالى، فرآه حين دخله يحمد الله ويثني عليه، ويكبِّره ويهلّله، وكل ذلك شكرًا بما أنعم الله عليه من نصرة دينه بفتح مكة. ثم رآه يلتزم جوانب البيت من جهاته الأربعة، يكبر عند التزامه ويهلل ويدعو، ثم خرج من البيت فأقبل عليه، ثم قال: «**هذه القبلة، هذه القبلة**»؛ أي: هذه الكعبة هي المسجد الحرام الذي أمرتم باستقباله، لا كل الحرم، ولا مكة، ولا كل المسجد الذي حول الكعبة، بل هي الكعبة نفسها فقط. والله أعلم[٤].

[فوائد الحديث] وفي الحديث:

١- حرصُ الصّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على الاقتداء برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

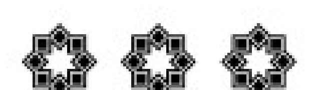
٢- جواز دخول الكعبة.

٣- التزامُ جوانب الكعبة من الداخل، وسؤال الله تبارك وتعالى من فضله سنةٌ ثابتةٌ عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٤- وجوب استقبال عين الكعبة لمن كان بداخل المسجد الحرام، وأمّا من كان في غير المسجد الحرام؛ فإنه يقصد جهتها، لا عينها.

[تطبيقات عملية]

كان السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يستحضرون عظمة الله سبحانه وتعالى في كل حال، وبخاصة عند بيته، فيعظم عندهم الرجاء، وتهونُ عليهم الدُّنيا، ويقطعون كل علائقهم بغير الله تبارك وتعالى، وممّا يروى في هذا الباب: أنَّ هشام بن عبد الملك دخل الكعبة، فإذا بسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال له : يا سالم! سلني حاجةً. فقال: إنّي أستحيي من الله تبارك وتعالى أن أسأل في بيت الله غير الله. فلمّا خرج؛ خرج في إثره، فقال له: الآن قد خرجتَ، فسلني حاجةً؟ فقال له سالمٌ: من حوائج الدّنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدّنيا. فقال له سالمٌ: أما والله ما سألتُ الدُّنيا من يملكها؛ فكيف أسأل الدُّنيا من لا يملكها؟![٥].



(١) الاستذكار (٢/٤٦٥)، وقوله: «**فهي قبلة أهل دينه أحياءً وأمواتًا**» ورد فيه حديثٌ أخرجه الحاكم من حديث عبيد بن عمير عن أبيه مرفوعًا في المستدرك (٤/٢٥٩)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه)، وقال الذهبيّ في التلخيص (٤/٢٦٠): (صحيحٌ).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٢٠٩)، والنسائي (٢٩١٥) واللفظ له، وصححه ابن خزيمة (٤/٣٢٩)، والحاكم في المستدرك (١/٦٥٢)، والألباني في صحيح سنن النسائي (٢٩١٥).

(٣) انظر: الاستيعاب (١/٢٤)، أسد الغابة (١/٤٠)، الإصابة (١/١٤).

(٤) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (٩/٨٧).

(٥) المجالسة وجواهر العلم (١/٣٨٤).

(٢٠)

لن تخلو الكعبة من طائف

من أبرز مظاهر التعظيم: تخصيص الشيء المُعظَّم بخصائص لا يشاركه غيره فيها، ومكة لما كانت خير أرض الله جعل الله لها خصائص كثيرة، ومن أعظم خصائصها: أن الله جعل فيها بيته الحرام، وشرع الطواف به، وجعل الطواف عامًّا في كل الأوقات، حتى في الأوقات التي لا تجوز فيها الصلاة، فيجوز للمسلم أن يطوف في أي وقت ويصلي ركعتي الطواف بعده، ولقد جاء عن ابن عمر وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنهما طافا بعد صلاة العصر، وصلَّيا ركعتي الطواف[(١)].

عن جُبَيرِ بن مُطْعِم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لاَ تَمْنَعُوا أَحَدًا طَافَ بِهَذَا الْبَيْتِ، وَصَلَّى أَيَّةَ سَاعَةٍ شَاءَ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ»[٢].

[راوي الحديث] جبير، هو: ابن مطعم بن عَدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي النوفلي، صحابي، عارف بالأنساب، مات سنة ٥٨ أو بعدها[٣].

[غريب الحديث] بنو عبد مناف: هم قوم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما خصَّهم بالخطاب دون سائر قريش لأنهم رؤساء مكة وفيهم كانت وظائف البيت، كالحجابة والسدانة والسقاية والرفادة[٤].

[كلمة الحديث] يستمتع أهل مكة والوافدون إليها بالبيت في كل وقتٍ، وفي كل حين، فلا يمنع أحدٌ من الطواف حولَه، ومن الصلاة خلف المقام. وهذا من بركة بيت الله الحرام بديمومة الطاعة عنده في جميع الأوقات. والأظهر في شأن الصلاة في الحديث أنّه خاص بركعتي الطواف، أما التطوع المطلق في أوقات النهي بدون سبب؛ فحكمه في مكة كحكمه في غيرها، وهو عدم الجواز[٥].

[فوائد الحديث] من فوائد الحديث:

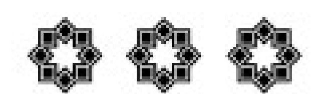
١- أن الطواف بالبيت جائز في جميع الأوقات[٦].

قال الشيخ عبد الحي اللكنوي الحنفي: لما طفت طواف الوداع حضرت المقام مقام إبراهيم لصلاة ركعتي الطواف فمنعني المطوفون من الحنفية، فقلت لهم: الأرجح الجواز في هذا الوقت، وهو مختار الطحاوي من أصحابنا، وهو كافٍ لنا. فقالوا: لم نكن مطلعين على ذلك، وقد استفدنا منك ذلك[٧].

٢- أن ركعتي الطواف يجوز فعلها حتى في أوقات النهي، لأنها صلاة ذات سبب، وهذا هو قول ابن عباس وابن عمر وابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والشافعي وأحمد وغيرهم من السلف(٨).

[تطبيقات عملية] ومن النماذج العملية في هذا الباب: ما روي: أن ثابت بن عبد الله ابن الزّبير طاف بالبيت سبعًا بعد صلاة الصبح، فجلس ولم يصلّ، فجاءه أبوه عبد الله بن الزبير، فقال: يا بنيّ، إذا كنتَ طائفًا فصلّ، وإن لم تصلّ فلا تطف(٩).

فلم يكن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرى ترك ركعتي الطواف في أوقات النهي.



(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣/٥٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٨٩٤)، والترمذي (٨٦٨) واللفظ له، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٥٨٥)، وابن ماجه (١٢٥٤). وصححه ابن خزيمة (٢/٢٦٣)، وابن حبان (٤/٤٢١)، والألباني في صحيح سنن أبي داود (١٦٦٨).

(٣) انظر: الاستيعاب (١/٦٩)، أسد الغابة (١/١٧١)، الإصابة (١/١٥٢).

(٤) انظر: تحفة الأحوذي (٣/٥١٤).

(٥) انظر: مرعاة المفاتيح (٣/٤٦٩).

(٦) انظر: المرجع السابق نفسه.

(٧) انظر: المرجع السابق نفسه (٣/٤٧٠).

(٨) انظر: التمهيد (١٣/٤٥-٤٦)، وتحفة الأحوذي (٣/٥١٥-٥١٦).

(٩) مصنف ابن أبي شيبة (٣/٥٦٤).

(٢١)

الطواف ومسح الركنين .. عبادات مكية

تكفير الخطايا ومغفرة السيئات من أَجَلِّ مقاصد العبد الذي يرجو رضوان الله والدار الآخرة، لذا؛ فحريٌ بالعبد أن يحرص عليه.

ومن ذلك: الطواف بالبيت، ومسح الركنين متى كان ذلك متيسراً بلا حرج؛ بحيث لا يؤذي أحدًا، وإن تعرض هو للأذى، كما روي ذلك ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال طلحة بن إسحاق: سألتُ القاسمَ بن محمد عن الزِّحام على الرُّكن، فقال: (زَاحِمْ يا ابن أخي، فقد رأيتُ عبدَ الله بنَ عمرَ يزاحمُ حتى يدمَى أنفُه)[(١)].

عن ابن عبيد بن عمير، عن أبيه: أن ابن عمر كان يُزاحم على الركنين، فقلتُ: يا أبا عبد الرحمن، إنّك تزاحم على الركنين زحامًا ما رأيتُ أحدًا من أصحاب النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزاحم عليه. فقال: إنْ أفعلُ، فإني سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ مَسْحَهُمَا كَفَّارَةُ الْخَطَايَا». وسمعتُه يقول: «مَنْ طَافَ بِهَذَا الْبَيْتِ أُسْبُوعًا فَأَحْصَاهُ كَانَ كَعِتْقِ رَقَبَةٍ». وسمعتُه يقول: «لاَ يَضَعُ قَدَمًا وَلاَ يَرْفَعُ أُخْرَى، إِلاَّ حَطَّ اللَّهُ عَنْهُ خَطِيئَةً، وَكُتِبَتْ لَهُ بِهَا حَسَنَةً»[٢].

[رواة الحديث] ابن عبيد، هو: عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي الجندعي، أبو هاشم المكي، كان من العلماء المكيين الثقات، توفي سنة ١١٣.

وأبوه هو: عبيد بن عمير بن قتادة الليثي أبو عاصم المكي، وُلِدَ على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عدَّه غير واحد في كبار التابعين، توفي سنة ٧٤[٣].

[غريب الحديث] قوله: «الركنين»، أي: الحجر الأسود والركن اليماني[٤].

«أسبوعًا»، أي: سبعة أشواط[٥].

«فأحصاه»، أي: أكمله، وراعى ما يعتبر من الشروط والآداب[٦].

«حَطَّ»: وُضِعَ وَغُفِرَ[٧].

[كلمة الحديث] عُرِف ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بشدّة تحرِّيه للسنة النبوية، وحرصِه على ذلك، ولذلك سُئل عن سبب مُزاحمته على الرُّكنين زحامًا لا يُعرف عن غيره من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأفاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالسبب، ويا له من سبب؟!

لا شك أن ما كان له مثل هذا الأجر؛ سيحرص عليه كل مبتغ

لرضا الله تعالى؛ لهذا ثبت عن رسولنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حرصه في استلام هذين الركنيين، فعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: (كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يدع أن يستلم الركن اليماني والحجر في كل طوافه). قال نافع: (وكان عبد الله بن عمر يفعله)[8].

[فوائد الحديث]

وللحديث فوائد، منها:

١- فضل استلام الحجر الأسود والركن اليماني ومسحهما[9].

٢- فضيلة الطواف حول البيت الحرام، وعظيم أجره. والاهتمام بشأنه، ومراعاة شروطه وآدابه[10].

٣- مشروعية الازدحام على الحجر الأسود لاستلامه وتقبيله إذا لم يكن فيه أذًى للناس ومضرة بهم[11].

٤- شدة حرص عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا على فعل السنن والإكثار من الطاعات، بل إنه قال كما يروى عنه: (ما تركت استلام هذين الركنين في شدة ولا رخاء، منذ رأيت النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستلمهما)[12].

٥- في اغتنامِ ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا سكنى مكة بكثرة الطواف أسوةٌ لكل مكيّ.

٦- اغتنامُ فرص الطاعة في مكة شأنُ أهلِ الفضل من الصحابة.

[تطبيقات عملية]

ومن أجلِّ النماذج العملية في هذا الباب: ما روي في اغتنام النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوقاته بالطواف: أنّه كان عام حجّة الوداع يزور البيت كل ليلةٍ من ليالي منى للطواف حوله[13].

وكذلك كان صحابته الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، يكثرون من

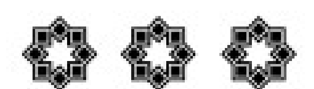
الطواف ولزوم العبادة مـدة إقامتـهم بمكـة، فـروي عـن ابـن عمـر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنّه كان إذا قدم مكة يطوف سبعة أسابيع بالليـل، وخمسـة بالنهار[١٤].

وكانـت عائشـة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا تطـوف بالبيـت ثلاثـة أسـابيع، تقـرن بينهن[١٥]، ثم تصلي لكل أسبوع ركعتين[١٦].

ومن أكثر الصحابة اجتهادًا في العبادة بمكـة عبـد الله بـن الـزبير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، بل كـان كمـا قيـل فيـه: صـنفًا في العبـادة، أي: عـديم المثيل، وهو كذلك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فلم يطف أحدٌ بالبيت سباحةً إلاّ هـو، وذلك حين غمر المسجد الحرام سيلٌ عظيمٌ منع الناس من الطـواف بالبيت، فطاف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سباحةً، ولم يجرؤ يومها علـى ذلـك أحـدٌ سواه[١٧].

ومكث عطاء بن أبي رباح التـابعي الجليـل في المسـجد الحـرام أربعين سنة لا يشتغل في ليله بغير الصلاة والطواف[١٨].

إنّ للطواف حول البيت حـلاوة مناجـاة يجـدها العبـد في قلبـه، فيسعد بها سعادة يبذل في سبيلها الدنيا بأجمعها، وإن الله عزّ وجـلّ - كما قال النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - «**حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ**»[١٩]، فكيـف بمـن لـزم الطـواف حول بيته، وأطال التعلق بأستاره، والتزام أعتاب بابه.



(١) مصنف عبد الرزاق (٥/٣٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٩٥٩) واللفظ له، وقال: «حديث حسن»، والنسائي (٢٩١٩)، وابن ماجه (٢٩٥٦)، وصححه ابن خزيمة (٤/٢١٨)، والحاكم في المستدرك (١/٦٦٤) والألباني في مشكاة المصابيح (٢٥٨٠).

(٣) انظر: تهذيب الكمال (١٥/٢٥٩)، وسير أعلام النبلاء (٤/١٥٦).

(٤) انظر: عمدة القاري (٩/٢٥٣).

(٥) انظر: فيض القدير للمناوي (٦/٢٢٧).

(٦) انظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/١١٥).

(٧) انظر: تحفة الأحوذي (٤/٢٩).

(٨) سنن أبي داود (١٨٧٦).

(٩) انظر: عمدة القاري للعيني (٩/٢٤٠).

(١٠) انظر: تحفة الأحوذي (٣/٥١٣)، ومرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/١١٥).

(١١) انظر: التمهيد لابن عبد البر (٢١/٧٦).

(١٢) أخرجه البخاري (١٦٠٦).

(١٣) علّقه البخاري بصيغة الجزم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ووصله غير واحد من أهل العلم. انظر: تغليق التعليق لابن حجر (٣/١٠٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٨٠٤).

(١٤) رواه الأزرقي في أخبار مكة (١/٤٤)، وأسابيع جمع أُسبوع، والمراد به: سبعة أشواط، كما تقدّم.

(١٥) أي تجمعهن دون فصل.

(١٦) المطالب العالية لابن حجر (٦/٤٢٣).

(١٧) سير أعلام النبلاء (٣/٣٧٠).

(١٨) أخبار مكة للفاكهي (٢/٣٢١).

(١٩) أخرجه أبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥) من حديث سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسّنه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٣٢٠).

(٢٢)

الكلام في الطواف

إنّه وإن جاز الكـلام في الطـواف إلا أن الإكثـار منـه قـد يكـون خروجًا عن حدِّ الأدب[١]، وخير ما يتكلم بـه المسـلم في الطـواف الدعاء والذكر كما روي عن الشافعيّ، قال: (أنـا أحـب القـراءة في الطواف، وهو أفضل ما يتكلم به الإنسان)[٢].

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الطَّوَافُ حَوْلَ الْبَيْتِ مِثْلُ الصَّلاَةِ، إِلاَّ أَنَّكُمْ تَتَكَلَّمُونَ فِيهِ، فَمَنْ تَكَلَّمَ فِيهِ فَلاَ يَتَكَلَّمْ إِلاَّ بِخَيْرٍ»(٣).

[كلمة الحديث] الطّواف ببيت الملك لا يقصده القاصد إلا افتقارًا إلى الله تعالى، والانشغال عنه بغيره لا تناسب هذه الحالة، كحاله بالصَّلاة تمامًا.

ولكن أبيحَ للطائف أن يتكلَّم مع غيره تفضلاً ورحمةً من الملِك سبحانه وتعالى، فاعرفوا الفضلَ واشكروه عليه، ومن ذلك: ألا يتحدَّث إلا لحاجة، وألا يتمادى في الحديث حتى يفضي إلى أن يكون سوء أدبٍ في ذلك المقام العظيم.

[فوائد الحديث] ومن فوائد الحديث:

١- فضل الطواف؛ حيث إنه مثل الصلاة التي هي أفضل العبادات.

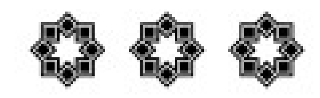
٢- استحباب ذكر الله تعالى ودعائه فيه؛ لأن الصلاة كلها ذكر ودعاء وتضرع، فينبغي أن يكون الطواف مثلها في ذلك.

٣- إباحة الكلام في الطواف، ولا يجوز التكلم في الطواف إلا بما هو خير(٤).

٤- اشتراط الطهارة في الطواف عند الأئمة احتجاجًا بهذا الحديث(٥).

[تطبيقات عملية] ولم يمتنع السّلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ تعالى من الكلام حول البيت شكرًا لتفضل الله عليهم مع التزام الأدب الذي هو سمة الشّاكرين، قال إبراهيم بن نافع: كلمتُ طاووسًا في الطَّواف فكلّمني(٦).

ومن لطيف ما يذكر من أمثلة الحديث في الطواف: ما رواه الصحابي الجليل فَضَالة بن عبيد في قصَّة إسلامه، يقول: أردتُ قتل النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يوم فتح مكة وهو يطوف بالبيت، فلما دنوتُ منه قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أَفَضَالة؟**»، قلتُ: نعم، فضالة يا رسول الله. قال: «**ماذا كنتَ تحدِّثُ به نفسك ؟**». قلتُ: لا شيء، كنتُ أذكر الله. فضحك النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ثم قال: «**استغفرِ اللهَ**». ثم وضع يده على صدري فسكن قلبي، واللهِ ما رفع يده عن صدري؛ حتى ما من خلق الله شيءٌ أحبَّ إليَّ منه (٧).



(١) ولا سيما حينما يكون ذلك بالهاتف المحمول (الموبايل).
(٢) انظر: عمدة القاري (٩/ ٢٦٣).
(٣) أخرجه الترمذي (٩٦٠) واللفظ له، والنسائي (٢٩٢٢)، وصححه ابن خزيمة (٤/ ٢٢٢)، والحاكم في المستدرك (٤٥٧)، والألباني في الإرواء (١١٠٢).
(٤) انظر: عمدة القاري (٩/ ٢٦٣).
(٥) شرح سنن ابن ماجه (١/ ٢٠٩).
(٦) عمدة القاري (٩/ ٢٦٣).
(٧) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٥/ ٨٠).

(٢٣)

عدل رقبة

عتق الرِّقاب من أعظم الأعمال عند الله؛ لأنَّ فيه فكَّ رقبة من ضيق العبوديةِ إلى فسحة الحرِّية. وهذه العبادة لا يستطيعها إلاّ ذوو اليسار، ولكن من بركة الأعمال الصالحة بمكة: أن سبعة أشواط حول بيت الله الحرام تعدلُ عند الله تبارك وتعالى عتقَ رقبة.

ولهذا كان حرص السلف شديدًا على الطواف؛ ليحصلوا على أجر العتق. وممّا حُفظ من أخبارهم: ما ثبت عن نصر بن محمد الهمْداني المعروف بالحُصَري الذي كان يطوف في كل يومٍ وليلةٍ سبعين أسبوعًا[1].

عـن عبـد الله بـن عبيـد بـن عمـير[٢] : أن رجـلاً قـال : يـا أبـا عبد الـرحمن - أي عبـد الله بـن عمـر - مـا أراك تسـتلم إلا هـذين الركنين؟ قـال : إنّـي سمعـت رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقـول : «إِنَّ مَسْحَهُمَا يَحُطَّانِ الْخَطِيئَةَ». وسمعته يقول : «مَنْ طَـافَ سَـبْعًا، فَهُـوَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ»[٣] .

[كلمة الحديث] عند الكريم سبحانه تعظم الجوائز، يطوف المؤمن سـبعةَ أشـواطٍ حـول بيـت الملـك الكـريم فيُـدرك فضـلَ ثـواب عتـق رقبـةٍ لله عزَّ وجلَّ[٤]. ويستلم الركنين اليمانيين؛ الحجـر الأسـود والـركن اليمـاني، فيرجـو بـذلك فضـل الله تبـارك وتعـالى بـأن تحـطَّ عنـه خطاياه[٥]، وفي هذا ما يعرف عنـد العلمـاء بالغنيمـة البـاردة، أي: الثواب العظيم الجزيـل في العمـل الـذي لا يكـون فيـه كـبير جهـد وتعب.

ولم يكن النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستلم غير الحجر الأسـود والـركن اليماني؛ لأنهما على بناء إبراهيم الخليل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أمّا الركن العراقي والركن الشامي فقد أخرجتهما قريش من بناء إبـراهيم حـين ضاقت بهم النفقة.

[فوائد الحديث] وللحديث فوائد، منها:

١- فضل استلام الحجر الأسود والركن اليماني ومسحهما[٦].

٢- اختصاص الركنين بالاستلام والمسح معًـا، وانفـراد الحجـر الأسود بالتقبيل دون غيره[٧].

٣- عدم مشروعية اسـتلام بقيـة أركـان الكعبـة (الـركن العراقـي والشامي)[٨].

٤- فضل مكة بما جعل الله فيها من أبواب الخير التي ليست في غيرها.

٥- سعة رحمة الله، فلا يهلك على الله إلا هالكٌ، فمن يعجزُ عن مسح الحجر والركن اليماني ليغفر الله له ذنوبه ؟!

٦- الغنيمة الباردة لأهل مكة في مسح الحجر الأسود والركن اليماني.

[تطبيقات عملية]

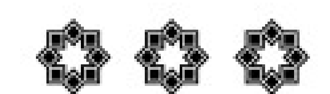
وتتمثل التطبيقات العملية لسلف هذه الأمَّة في حرصها على الطواف مدَّة بقائها في مكة، ولا سيما ممَّن تضيق بهم أعمالهم والأعباء المنوطة بهم عن إطالة المُقام بمكة، كأمير المؤمنين هارون الرشيد؛ إذ روي عنه أنَّه كان إذا نزل مكة فصلى بها العصر، يطوف بالبيت، فلا يزال كذلك حتى يؤذن المغرب.

قال ابن شبيب: رأيت أمير المؤمنين هارون دخل الطوافَ فأحصيتُ له من صلاة العصر إلى صلاة المغرب ستة عشر أسبوعًا يصلي بين كل سُبْعَين ركعتين(٩).

ومن النماذج العملية في عدم مشروعية مسح غير الركنين اليمانيين: أنَّ ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا طاف مع معاوية بالبيت، فجعل يستلم الأركان كلها، فأنكر عليه ابن عباس قائلاً: لِمَ تستلمُ هذين الركنين، ولم يكن النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يستلمهما؟ فقال معاوية: ليس من البيت شيءٌ مهجورٌ. فقال ابن عباس: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾. فقال معاوية: صدقتَ(١٠).

وعلى هذا مشى سلفنا رَحِمَهُمُٱللَّهُ تعالى، فعن عطاءٍ، قال: (أدركتُ

مشيختنا؛ ابن عبّاسٍ وجابرًا وأبا هريرة وعبيد بن عميرٍ، لا يستلمون إلاّ الحجر الأسود والرّكن، لا يستلمون غيرهما من الأركان) (١١).



(١) العقد الثمين (٧/ ٣٣٣).

(٢) سبقت ترجمته في الحديث رقم (٢١).

(٣) تقدم تخريجه في الحديث رقم (٢١).

(٤) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ١١٥).

(٥) انظر: التمهيد لابن عبد البر (٢١/ ٧٦)، وفتح الباري لابن حجر (٣/ ٤٧٤)، وعمدة القاري للعيني (٣/ ٢٧).

(٦) انظر: عمدة القاري (٩/ ٢٤٠).

(٧) انظر: فتح الباري (٣/ ٤٧٥).

(٨) انظر: التمهيد لابن عبد البر (٢١/ ٧٦)، وفتح الباري (٣/ ٤٧٤)، وعمدة القاري (٣/ ٢٧).

(٩) أخبار مكة للفاكهي (٢/ ٣٠٣-٣٠٤).

(١٠) الأوسط للطبراني (٣/ ١٧).

(١١) مصنف ابن أبي شيبة (٣/ ٨٤٠).

(٢٤)

آية باهرة في الحجر الأسود

لمَّا ارتفع بناءُ البيتِ، ووصل إلى موضع الحجر الأسود، قال إبراهيم الخليل لابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام: «**أبغني حجرًا أضعه ها هنا يكون للناس عَلَمًا يبتدؤن منه الطواف**». فذهب إسماعيلُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يطلب له حجرًا، فرجع فإذا بجبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد نزل بالحجر الأسود من الجنّة[1]؛ ليكون آيةً من آيات الله البيِّنات في المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَزَلَ الْحَجَرُ الأَسْوَدُ مِنْ الْجَنَّةِ، وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَنِ، فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ» [٢].

[كلمة الحديث] معنى سوَّدته خطايا بني آدم: أي: صارت ذنوب بني آدم من الذين يمسحون الحجر سببًا لسواده، وهو على الحقيقة، وليس مجازًا[٣].

قال أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (الحجر من حجارة الجنة)[٤].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (لقد نزل الحجر من الجنة، وإنه أشد بياضًا من الثلج، فما سوَّده إلا خطايا بني آدم)[٥].

والتأثير بالسَّواد في الحجر الأسود آية كما قال المحبُّ الطبريُّ المكيُّ: (في بقائه أسود عبرة لمن له بصيرة، فإن الخطايا إذا أثرت في الحجر الصّلد فتأثيرها في القلب أشدُّ)[٦].

وهذا السّواد إنّما هو للجزء الظاهر منه، وأمّا ما غُرس في بناء الكعبة المشرفة؛ فعلى لونه الأبيض الذي نزل به، وهو ظاهر الحديث، ويؤيّده ما روي عن مجاهد بن جبر، قال: (نظرتُ إلى الرّكن حين نَقَضَ ابن الزبير البيتَ، فإذا كل شيء منه داخل البيت أبيض)[٧].

وقال محمد بن نافع الخُزاعي: (تأملتُ الحجر الأسودَ وهو مقلوعٌ؛ فإذا السواد في رأسه فقط، وسائره أبيض، وطوله قدر ذراع)[٨].

ومن خصائص هذه الآية العظيمة: بقاؤها إلى يومنا مُصانةً ومحفوظة من الضياع.

[فوائد الحديث]

ومن فوائد الحديث:

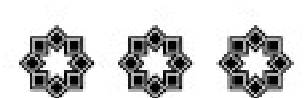
١- فضل البلد الحرام؛ إذ جعل الله فيه حجرًا من أحجار الجنة.

٢- وجوب الإيمان بأن الحجر الأسود نزل من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن، وأن خطايا بني آدم غيَّرت لونه[٩].

٣- عِظَمُ تأثير الذنوب؛ حيث أثرت على الحجر؛ فتأثيرها على القلوب أشد[١٠].

٤- جواز وصف الحجر بالأسود؛ خلافًا لمن يتحاشى ذلك من المتنطعين، ويصفه بالأسعد.

٥- ليس من لازم تسويد الخطايا للحجر الأسود أن تبيِّضَه طاعات المؤمنين، كما زعمه بعض الضالين، فقد يكون من فوائد بقائه مُسْوَدًّا أن يأتي سواده شهيدًا على الكفار يوم القيامة[١١].



(١) أصل الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٢٩٣)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي في التلخيص.
(٢) أخرجه أحمد (١/٣٠٧)، والترمذي (٨٧٧) واللفظ له وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٢٩٣٦) مختصرًا، وصححه ابن خزيمة (٤/٢١٩)، والألباني في مشكاة المصابيح (٢٥٧٧).
(٣) تحفة الأحوذي (٣/٥٢٥).
(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٣/٧٠٦).
(٥) المرجع نفسه.
(٦) فتح الباري (٣/٤٦٣).
(٧) أخبار مكة للفاكهي (١/٩٢).
(٨) تاريخ الخلفاء للسيوطي (٣٤٥).
(٩) انظر: تحفة الأحوذي (٣/٥٢٥).
(١٠) انظر: فتح الباري (٣/٥٤١).
(١١) فيض القدير (٤/٧١٣).

(٢٥)

حين يشهد الحجر!

رجاء الظفر بهذه الشهادة الثابتة يوم العرض الأكبر، حَرِصَ السَّلفُ حرصًا بالغًا على استلام وتقبيل هذا الحجر الشريف، وهذا الحرص أثرٌ من آثار اتِّباعهم للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عن ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيَأْتِيَنَّ هَذَا الْحَجَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ، يَشْهَدُ عَلَى مَنْ يَسْتَلِمُهُ بِحَقٍّ» [1].

[غريب الحديث] الحجر: المراد به الحجر الأسود، وهو في ركن الكعبة الذي عند بابها [2].

[كلمة الحديث] من خصائصه: أنَّه يأتي شاهدًا يوم القيامة على من استلمه بحقٍّ في الدُّنيا، مؤمنًا به أنّه حجرٌ من أحجار الجنَّة، وأنَّ تقبيله له، ومسحه وسجوده عليه عبادةٌ لله تبارك وتعالى. يأتي وقد جعل الله له عينين يبصر بهما الذين استلموه بحقٍّ، فيعرفهم، ويشهد لهم بلسانه مخبرًا بإيمانهم وصدقهم.

[فوائد الحديث] وفي الحديث فوائد جليلة، منها:

١- فضل الحجر الأسود، وفضل من استلمه بحق.

٢- إثبات قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يهب للحجر - وهو من جملة الموات - يوم القيامة ما يستعد به للنطق، ويجعل له آلة يميز بها بين المشهود له وغيره [3].

٣- وجوب الإيمان بهذه الحقيقة الغيبية المذكورة في الحديث [4].

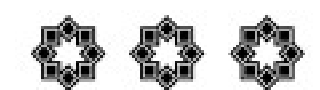
٤- في الحديث إشارة إلى أهمية تعظيم البيت امتثالا لأمره، وتعظيم حرماته اقتفاء لأثره كما تدل عليه لفظة: «**بحقٍّ**» [5].

[تطبيقات عملية] ولهذا الحديث أنموذجٌ تطبيقيٌ رائع، وهو ما أُثِرَ عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند تقبيله لهذا الحجرِ، حيث قال: (إنِّي أعلم أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أنَّي رأيتُ رسولَ الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقبِّلك ما قبَّلتك)[٦].

فهذا هو الإيمان الذي يشهد به هذا الحجرُ الأسود يوم القيامة لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فليس لتقبيل الإنسان حجرًا معنًى يمكن اعتبارُه سوى التعبد لله سبحانه وتعالى بتعظيمه، واتباع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ورويَ عن عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّهُ كان إذا استلم الحجر قال: (اللّهُمّ إيمانًا بك، وتصديقًا بكتابك، وإتّباعًا لسُنّة نبيّك مُحمّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[٧].



(١) أخرجه أحمد (٢/٩٨٢)، والترمذي (٩٦١)، وقال: "حديث حسن"، وابن ماجه (٢٩٤٤) واللفظ له، وصححه ابن خزيمة (٤/٢٢٠)، وابن حبان (٩/٢٥)، والألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢٣٨٢).

(٢) انظر: معجم لغة الفقهاء (ص:١٧٥).

(٣) انظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/١١١).

(٤) انظر: تحفة الأحوذي (٤/٣١).

(٥) انظر: فيض القدير (٥/٤٣٩).

(٦) أخرجه البخاري (١٥٩٧).

(٧) انظر: إتحاف الخيرة المهرة (٣/١٨٩).

(٢٦)

استلام وتقبيل الحجر الأسود

كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حريصًا على استلام الحجر الأسود، وإن لم يتمكن من الوصول إليه استلمه بعصًا كما روي عن أبي الطفيل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (رأيتُ رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطوفُ بالبيتِ، ويستلمُ الرُّكنَ بمحجنٍ مَعه، ويقبّل المحجَن) [(١)].

عن الزُّبير بن عَرَبي، قال: سأل رجلٌ ابنَ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن استلام الحَجَرِ فقال: رأيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستلمه ويقبِّله. قال قلتُ: أرأيتَ إن زُحِمْتُ، أرأيتَ إن غُلِبْتُ؟ قال: «اجعل أرأيتَ باليمن، رأيتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستلمُه ويقبِّلُه»[٢].

[راوي الحديث] الزُّبير بن عربي هو: أبو سلمة النمري البصري، أحد ثقات التَّابعين[٣].

[كلمة الحديث] يرسم ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بكلماته هذه: (اجعل أرأيتَ في اليمن رأيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستلمه ويقبله) حدودًا في الاقتداء بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يجب على الأمَّة أن تقف عندها. فحسبنا في الامتثال والاقتداء في قولٍ أو فعلٍ أنّ رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله أو فعله، ولا شكَّ أنَّه إن وُجِدَ الازدحام عند الحجر الأسود فالأولى تركُ الاستلامِ مخافةَ أن يؤذي النَّاس، ولكن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أراد إثبات السنة، وكره تكلف فرَضياتٍ قد تؤدِّي إلى زُهدِ النَّاس في الاقتداء به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولاً أو فعلاً.

[فوائد الحديث] وفي الحديث من الفوائد:

١- مشروعية استلام الحجر الأسود وتقبيله[٤].

٢- الوقوف عند الأدلة الشرعية، وعدم معارضتها بالعقل[٥].

٣- الاحتجاج بأفعال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تقرير الأحكام.

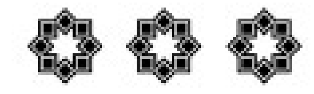
٤- وقد ذكر بعض أهل العلم أن تقبيل الحجر الأسود ينبغي أن يكون دون صدور صوتٍ عن الشفتين لهيبة المكان وجلاله.

٥- استلامه وتقبيله من سنن الحج لمن قدر عليه[٦].

وقد ورد من نماذج السلف وتطبيقاتهم العملية ما يفيدُ مراعاتهم [تطبيقات عملية] للازدحام حول الكعبة عند استلام الحجر الأسود: فعن عبد الرحمن ابن عوف أنه كان إذا أتى الركن فوجدهم يزدحمون عليه استقبله وكبَّر ودعا، ثم طاف فإذا رأى خلوةً استلمه(٧).

وقد سأله رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن استلامه للحجر وتركه، فأخبره بطريقته في الاستلام والترك، فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أحسنتَ**»(٨).

وذلك مع الحرص التَّامِّ منهم على الاستلام عند عدم الازدحام، فكان طاووس إذا كان في المسجد، وأراد أن يخرج؛ استلم الركن، ثم خرج(٩).



(١) أخرجه مسلم (١٢٧٥).
(٢) أخرجه البخاري (١٦١١).
(٣) انظر: الجرح والتعديل (٣/ ٥٨٠)، تهذيب الكمال (٩/ ٣١٨).
(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (٩/ ١٥).
(٥) عمدة القاري (٩/ ٢٥٦).
(٦) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤/ ٢٩٢).
(٧) التمهيد لابن عبد البر (٢٢/ ٢٥٧).
(٨) أخرجه الأزرقي بإسناد صحيح في أخبار مكة (١/ ١٠١).
(٩) أخبار مكة للفاكهي (١/ ١٢٦).

(٢٧)

الحرص على تقبيل الحجر الأسود

كان صحابة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أكثر الناس تمثلاً بهدي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وعنهم ورِث الناسُ الاقتداء بهدي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وورثوا عنهم كذلك فقهَ هذا الاقتداء ورُوحَه.

عن نافع، قال: رأيتُ ابنَ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يستلمُ الحَجَر بيده، ثم قبَّل يدَه، وقال: (ما تركتُه منذُ رأيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعلُه)[1].

[راوي الحديث] نافع هو: أبو عبد الله المدني، مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان من علماء المدينة، ومن الفقهاء المفتين، وأَكْثَر من الرواية عن ابن عمر، توفي سنة ١١٧[2].

[كلمة الحديث] وكلمة هذا الحديث المبارك: الحرصُ على تقبيل الحجر الأسود، فإنّ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رأى حرصًا من النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تقبيل الحجر الأسود واستلامه، فما تركه منذ رأى ذلك. ولا يكون هذا الحرص من النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا لفضل ذلك، وعظم أجره.

[فوائد الحديث] ولهذا الحديث فوائد، منها:

١- فضل الحجر الأسود، ومشروعية استلامه باليد، ثم تقبيل اليد بعد ذلك[3].

٢- لا ينبغي للمسلم أن يزهد في هذه السنة عند القدرة عليها.

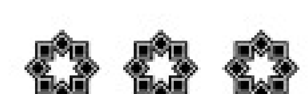
قال ابن عبد البر: لا يختلفون أن تقبيل الحجر الأسود في الطواف من سنن الحج لمن قدر على ذلك، ومن لم يقدر على تقبيله وضع يده عليه ورفعها إلى فيه، فإن لم يقدر على ذلك أيضًا للزحام كبَّر إذا قابله، فمن لم يفعل فلا حرج عليه، ولا ينبغي لمن قدر على ذلك أن يتركه؛ تأسيًا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه بعده[4].

٣- فضل ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وحرصه على تطبيق السنة.

[تطبيقات عملية] وقد حفظت لنا كتب السنة والأخبار أمثلةً على حرص السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ على تقبيل واستلام الحجر الأسود، من ذلك : ما رواه ابن جريج قال: قلت لعطاء: هل رأيتَ أحداً من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا استلموا قبَّلوا أيديهم؟ فقال: نعم، رأيت جابر بن عبد الله، وابن عمر، وأبا سعيد الخدري، وأبا هريرة، إذا استلموا قبَّلوا أيديهم. قلت: وابن عباس؟ قال: نعم[٥].

وعن هشام بن عروة ، قال: (ما رأيت أبي استلم الحجر، إلا قبل يده)[٦].

وقال معمرٌ: (لم أر أحداً إلا وهو يقبِّلُ يده. وأدركنا النّاس على ذلك)، قال: (ولقد رأيتُ أيوبَ - يعني: السختياني - كثيراً ما يمسح بيده إذا استلم بعد أن يُقَبِّل يده)[٧].



(١) أخرجه مسلم (١٢٦٨).
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٩٥)، وتهذيب الكمال (٢٩/ ٢٩٨).
(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (٩/ ١٥).
(٤) التمهيد (٢٢/ ٢٥٧).
(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٣/ ٧٦٨)، ومعرفة السنن والآثار (٤/ ٥١).
(٦) مصنف ابن أبي شيبة (٣/ ٧٦٩).
(٧) مصنف عبد الرزاق (٥/ ٤٢).

(٢٨)

الاتباع في الاحتفاء بالحجر الأسود

من كمال البر بهذا الحجر المقدس استلامه والاعتناء بـه في كـل طواف كما روي عن مجاهد وطاووس أنهما كانا يسـتحبان اسـتلام الركنين الأسود واليماني في كل وتر من الطواف[١]، والعمـل علـى هذا عند أهل العلم، يستحبون تقبيل الحجر الأسود، فإن لم يمكنه، استلمه بيده، وقبل يده ويفعله في كل طَوْفة، فإن لم يمكـن، ففـي كل وتر، فإن لم تصل يده إليه استقبله إذا حاذاه وكبر[٢].

عن سويدِ بن غَفَلَة[٣]، قال: رأيتُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبَّل الحَجَرَ والْتَزَمهُ، وقال: «رأيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكَ حفيًّا»[٤].

[راوي الحديث] سويد بن غَفَلة الجعفي، أبو أمية الكوفي، من كبار التابعين، مات سنة ٨٠.

[غريب الحديث] (التزمه): عانقه.

(حفّيًا): أي: معتنيًا بشأن الحجر. قال ابن الأنباري: (الحفي في كلام العرب المعني بالشيء)[٥].

[كلمة الحديث] كلمة الحديث: أنّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يقدِّسون ولا يعظِّمون إلاّ ما عظَّمه الشَّارع الحكيمُ سبحانه وتعالى في كتابه أو في سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والاحتفاء بالحجر الأسود استلامًا وتقبيلاً وسجودًا بوضع الجبهةِ عليه من احتفاء النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به. وهذا أصل التعظيم، أعني: امتثال الشريعة الإسلامية أمرًا ونهيًا.

وحقُّ العلم التعليم، فعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تعلَّم تقديس الحجر الأسود وتعظيمه من النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلّمه للناس. وينبغي على أهل مكة أن يكونوا من أعلم النَّاس بمناسك الحجِّ والعمرة، فيعلمونها الحُجاجَ والعُمَّارَ. وقد كان أهل مكة قديمًا كذلك، يرون تعليمَ الحُجاج وإرشادهم في مناسكهم من واجباتهم.

قال ابن رُشيد الفهري في رحلته إلى مكة: (فتلقانا أهلها وأطفالها متعلقين بالناس، يعلمونهم المناسك، ويهدونهم المسالك، وقد دُرِّبَ صبيانُهم على ذلك)[٦].

[فوائد الحديث] وفي الحديث فوائد، منها:

١- فضل الحجر الأسود.

٢- استحباب تقبيل الحجر الأسود ومعانقته[٧].

٣- الاعتناء بشأن الحجر الأسود[٨].

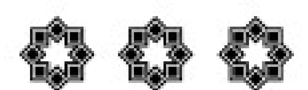
٤- المقصود من تقبيل الحجر الأسود اتباع هدي النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتأسي به، لا تقديس ذاته كما يصنع عبدة الأوثان[٩].

[تطبيقات عملية]

واحتفاء الصحابة ومَن بعدهم بالحجر الأسود من أثر متابعتهم لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعن نافع: أنّه كان يرى ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لا يخرج من المسجد الحرام حتى يستلم الحجر الأسود، سواء كان في طواف، أو في غير طواف[١٠].

وعن الحسن البصري أنه كان يعجبُه أن يستلم الحجر حين يفتتح، وحين يختم[١١].

وكان العالم المكي سعيد بن جبير إذا كان في المسجد، يختم يومَه بالحجر الأسود فيستلمه، ثم يأتي أهله[١٢].



(١) التمهيد لابن عبد البر (٢٢/٢٦١).
(٢) شرح السنة للإمام البغوي (٧/١١٣).
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/٦٩).
(٤) أخرجه مسلم (١٢٧١).
(٥) كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١/٦٧).
(٦) ملء العيبة (٨٠).
(٧) انظر: حاشية السندي على النسائي (٥/٢٢٧).
(٨) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (٩/١٧).
(٩) انظر: حاشية السندي على النسائي (٥/٢٢٧).
(١٠) أخبار مكة (١/١٢٢).
(١١) مصنف ابن أبي شيبة (٣/٨٥٦).
(١٢) المرجع نفسه.

(٢٩)

الصلاة في الحجر

تظل الصلاة داخل الكعبة حُلمًا يُراود مخيلة عامَّة المسلمين حين يفدون إلى مكة، ونظرًا لكثرة الذين يفدون إلى البيت الحرام، فإنـه لا يكاد يتهيأ ذلك لكل أحـد، وبخاصَّـة للنّسـاء الـلاتي نُهـينَ عـن مزاحمةِ الرِّجال عند تقبيل الحجر الأسود، فكيف بالمزاحمة داخـل الكعبة؟!

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كنتُ أحبُّ أن أدخل البيتَ فأُصَلِّيَ فيه، فأخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيدي فأدخلني الحِجْر، وقال: «صَلِّي فِي الْحِجْرِ إِنْ أَرَدْتِ دُخُولَ الْبَيْتِ، فَإِنَّمَا هُوَ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَيْتِ، وَلَكِنَّ قَوْمَكِ اسْتَقْصَرُوهُ حِينَ بَنَوْا الْكَعْبَةَ، فَأَخْرَجُوهُ مِنَ الْبَيْتِ»[1].

[راوي الحديث] عائشة بنت أبي بكر الصديق، زوج النّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تزوّجها بمكة بعد أمِّ المؤمنين سودة بنتِ زمعة قبل الهجرة بسنتين، وابتنى بها بالمدينة وهي ابنة تسع، وفضائلها ومناقبها كثيرة، ماتت سنة ٥٧، وقيل: ٥٨، ودفنت بالبقيع[2].

[غريب الحديث] قوله: «الحِجْر» بكسر الحاء وسكون الجيم: الحائط الذي على شكل نصف دائرة من جانب الجهة الشمالية للكعبة، وسُمِّي حِجرًا؛ لأن قريشًا في بنائها تركت من أساس إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وحَجَرَت على الموضع ليُعلم أنّه من الكعبة[3].

«استقصروه»، أي: قصروه عن تمام بنائه لقلَّة النفقة[4].

[كلمة الحديث] حمل الحديث توجيهًا نبويًا كريمًا يحقق للمرأةِ غايتها من الصَّلاة داخل الكعبة، ويمنعُها من مزاحمة الرِّجال عند بابها، وهو الصَّلاةُ داخل الحِجر، فإنه داخل في قواعد البيتِ التي رفعها إبراهيم الخليل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

والعبرة بعموم لفظ هذه القصة؛ فكل من صلَّى في الحِجْر رجلاً كان أو امرأة؛ فقد صلَّى داخل الكعبة.

[فوائد الحديث] والقصَّة احتوت على فوائد أخر، منها:

١- أنّ الحِجْر جزء من البيت[5]، وهو مقدار سبعة أذرع منه على

وجه التقريب، كما تفيده الروايات الواردة فيه [٦].

٢- أنّ الصّلاة في الحِجْر مثل الصّلاة في الكعبة [٧].

٣- أنّ الطواف يجب أن يكون خارج الحِجْر؛ لأنه فعل الرّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأنّ الطواف يكون حول البيت، والحِجْر جزء من البيت، فلا يصح الطواف من خلاله [٨].

٤- أنّ السبب في عدم إدخال الحجر في بناء البيت أن قريشًا لما بنت الكعبة اقتصروا على الطيِّب من مالهم، فقصرت بهم نفقة البناء؛ فتركوا ذلك الجزء خارج البناء [٩].

٥- إعانة الرجلِ أهلَه على الطاعة والعبادة.

[تطبيقات عملية]

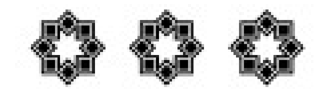
وقد حرص السَّلف الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ على الصلاة داخل الحِجْر بُغيةَ هذا الفضل العظيم، ورويت عنهم أخبارٌ عجيبةٌ، منها: ما روي عن عمرو بن دينار قال: رأيت ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يصلي في الحِجر خافضًا بصره، فجاءه حَجَرٌ قُدَّامَهُ فذهب ببعض ثوبه، فما انْفَتَل [١٠].

وكان سعيد بن جبير إذا قضى طوافه دخل الحِجْر فصلى فيه، وكان علي بن الحسين يفعل ذلك [١١].

وما زال المسلمون يحرصون على الصلاة بالحِجْر، حتى إن كتب التراجم قد ذكرت أن الصحابي الجليل: المسور بن مخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مات وهو يصلي داخل الحجر، وذلك بسبب حجارة المنجنيق التي ألقيت على الحرم أثناء حصار ابن الزبير عام ٦٤ [١٢].

وكان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُرغِّبُ النَّاس في الصلاة داخل الحِجْر، فكان يقول لأصحابه: صلّوا في مصلّى الأخيار، واشربوا من شراب

الأبرار. قيل: وما مصلّى الأخيار؟ قال: تحت الميـزاب. قيـل: ومـا شراب الأبرار؟ قال: ماء زمزم[١٣].



(١) أخرجه أحمد (٦/٩٢)، وأبو داود (٢٠٢٨) واللفظ له، والترمذي (٨٧٦)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٢٩١٢)، وصححه ابن خزيمة (٤/٣٣٥)، والألباني في صحيح سنن أبي داود (١٧٨٥).

(٢) انظر: الاستيعاب (٤/١٨٨١)، أسد الغابة (٧/١٨٨)، الإصابة (٧/١٨٧).

(٣) معجم البلدان (٢/٢٢١).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (٩/٨٩).

(٥) انظر: شرح السنة للبغوي (٧/١١٠)، والتمهيد (١٠/٥٠).

(٦) انظر: فتح الباري (٣/٤٤٣).

(٧) انظر: الاستذكار لابن عبد البر (٤/١٨٩).

(٨) انظر: شرح السنة (٧/١١٢) والتمهيد (١٠/٥٠).

(٩) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (٩/٨٩).

(١٠) الزهد لأحمد بن حنبل (٣ / ١٦٢)، فما انفتل: أي فما انصرف عن صلاته.

(١١) مصنف ابن أبي شيبة (٢ / ٤٩٦).

(١٢) انظر: الإصابة (٦/١١٩).

(١٣) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة بسند صحيح (١/٣١٨).

(٣٠)

السجود على الحجر الأسود

دخل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسجد الحرام عام حجَّة الوداع، فكان أول ما فعله أن بدأ بالحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت الحرام[1]. وهذا الاستلام للحجر الأسود عبادة مكيَّة لا يمكن أن تؤدَّى إلا عنده، وهو ما يؤكد خصيصة من خصائص البلد الحرام، وهو كونه مباركًا بكثرة الخير في الدنيا والآخرة، ومنها: بركة العبادة من حيث الكثرة كالطواف وتقبيل الحجر الأسود، ومن حيث عظم الأجر في مغفرة الذنوب ومضاعفة الأجور.

ومن هذه العبادات المكيَّة: السُّجود على الحجر الأسود.

عن جعفر بن عبد الله، قال: رأيتُ محمد بن عبّاد بن جعفر قبَّلَ الحَجَر وسجدَ عليه، ثم قال: رأيتُ خالك ابنَ عباس يُقبِّلُهُ ويسجدُ عليه، وقال ابن عباس: رأيتُ عمر بن الخطاب قبَّل وسجدَ عليه، ثم قال: رأيتُ رسول الله ﷺ فعل هكذا، ففعلتُ[2].

[رواة الحديث] جعفر بن عبد الله، هو ابن عثمان القرشيّ المخزوميّ، أبو جعفر، ويقال له: جعفر الحميديّ، وثقه أبو حاتم الرازيّ وغيره[3].

ومحمّد بن عبّاد بن جعفر القرشيّ، هو: المخزوميّ المكيّ، تابعي روى عن جماعة من الصحابة، وكان من العلماء الأثبات[4].

[كلمة الحديث] ينبغي عند قراءة هذا الحديث المبارك التوقف عند كلمة (رأيتُ) وإنعام النظر فيها مليًّا؛ فقد تكررت أربع مرَّات، المرَّة الأولى حين قالها جعفر بن عبد الله، والمرَّة الثانية حين قالها محمد بن عبّاد بن جعفر، والمرّة الثالثة حين قالها عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والمرّة الرابعة حين قالها عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تسلسلت هذه الكلمة لتروي لنا حكاية سجود النبيِّ ﷺ على الحجر الأسود؛ بأن وضع جبهته الشريفة عليه بعد تقبيله، وأنّ صحابته الكرام اقتدو به في فعله فسجدوا عليه لسجوده ﷺ، وهكذا كانت تنقل الشريعة بهذه العناية الفائقة.

[فوائد الحديث] وفي هذا الحديث فوائد، منها:

١- الأصل في العبادة التأسي لا الاجتهاد.

٢- مشروعية تقبيل الحجر الأسود والسجود عليه، وذلك بأن

يستلمه، ثم يقبله، ثم يضع جبهته عليه[٥].

٣- حرص السلف على التأسي بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباع سنته؛ وذلك امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

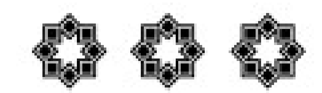
٤- استلام الحجر الأسود، وتقبيله، والسجود عليه من خصائص البلد المبارك.

٥- حقُّ العلم التعليم.

[تطبيقات عملية] وقد عمل السلف الصالح بهذه العبادة، وحرصوا عليها عملاً وتعليمًا، وبالغوا في العناية بذلك؛ قال محمد بن جعفر: رأيتُ ابنَ عباس قبَّل الركن، ثم سجد عليه، ثم قبَّله، ثم سجد عليه، ثم قبَّله، ثم سجد عليه ثلاث مرات[٦].

وقال حنظلة بن أبي سفيان: كان طاووس إذا وجد الركن خاليًا قبَّله ثم سجد عليه، وقبَّله وسجد عليه، وقبَّله وسجد عليه[٧].

قال ابن المنذر: وأجمعوا على أن السجود على الحجر جائزٌ[٨].



(١) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨).

(٢) أخرجه الدارمي (١٨٥٦)، والفاكهي في أخبار مكة (١/١١٢)، والبيهقي في الكبرى (٥/٧٤)، وصححه ابن خزيمة (٤/٢١٣) واللفظ له، والحاكم في المستدرك (١/٦٢٥).

(٣) انظر: الجرح والتعديل (٢/٤٨٢)، والثقات لابن حبان (٨/١٥٩).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٥/١٠٦)، وتهذيب الكمال (٢٥/٤٣٣).

(٥) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (٩/١٦).

(٦) مصنف عبد الرزاق (٥/٣٧)، الأم للشافعي (٢/١٧١)، الاستذكار (٤/٢٠١).

(٧) أخبار مكة للفاكهي (١/١١٦).

(٨) الإجماع لابن المنذر (٦١).

(٣١)

تكبيرات الموحدين على الصفا والمروة

يبرز بمكة جبلان عظيمان ليس في عظم الحجم، ولكن في عظم المكانة في نفوس المسلمين، وقد شهد هذان الجبلان أحداثًا جليلة في تاريخ البلد الحرام بدءًا من أول يومٍ وطأت فيه ذرِّية إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأقدامها أرضَ مكةَ شرَّفها الله.

وقد عظَّم الله تبارك وتعالى من شأنهما فذكرهما في كتابه، فهما من آيات المسجد الحرام البيّنات ومن الشعائر المعظَّمة، قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أنّ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَمَل ثلاثة أطواف من الحَجَر إلى الحَجَر، وصلّى ركعتين، ثم عاد إلى الحَجَر، ثم ذهب إلى زمزم، فشرب منها، وصبّ على رأسه، ثم رجع فاستلم الركن، ثم رجع إلى الصّفا، فقال: «أَبدأُ بِما بَدأَ الله بِه»[1].

[غريب الحديث] قوله «رَمَل»: يقال: رمل يرمل إذا أسرع في المشي وهو يهزُّ منكبيه[2].

«الصفا»: جمع صفاة: وهي أكمة صخرية بمكة، هي بداية المسعى من الجنوب، منها يبدأ السعي[3].

[كلمة الحديث] الحديث يَذْكُر بشيءٍ من التفصيل فعلَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طوافه عام حجَّة الوداع، ولكن كلمة الحديث في هذه الأربعون المكية تقف عند قول النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو متجِّهٌ إلى الصفا: «**أبدأ بما بدأ الله به**»، يشير صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٥٨]، فبدأ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصفا؛ لأنّ الله بدأ به ذِكراً في كتابه، وهذا من أدب النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع ربِّه.

فالصفا من معالم البلد الحرام؛ وهو من إرث أبينا إبراهيم خليل الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فقد سعت بينه وبين المروة هاجر عليها السلام في قصة بناء البيت، وعليه جهر النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعوة إلى إفراد الله بالعبادة وترك عبادة الأوثان، ووقف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على الصفا في حجَّته، فاستقبل القبلة، ووحد الله وكبَّره، وقال: «**لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو**

على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده وهزم الأحزابَ وحده»[٤]، وفعل مثل ذلك على المروة، فهما من آيات الله البيِّنات.

[فوائد الحديث]

وفي الحديث فوائد منها:

١- الحجر الأسود بداية الطواف[٥].

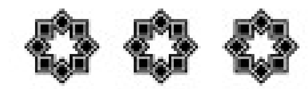
٢- مشروعية ركعتي الطواف بعد الفراغ منه[٦].

٣- يشرع الرمل في طواف القدوم في الأشواط الثلاثة الأولى جميعها[٧].

٤- يُسنّ استلام الحجر وتقبيله بعد الفراغ من ركعتي الطواف، وبعد شرب ماء زمزم قبل الشروع في السعي[٨].

٥- يُسنّ شرب ماء زمزم بعد الفراغ من ركعتي الطواف.

٦- وجوب ابتداء السعي من الصفا؛ لابتداء الله به في كتابه واقتداءً بنبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٩].



(١) أخرجه أحمد (٣٩٤/٣) واللفظ لـه، والترمـذي (٨٥٧)، و النسـائي (٢٩٤٤)، وابن ماجه (٢٩٥١)، وصححه ابن خزيمة (٢٣٠/٤)، وابـن حبـان (١٢١/٩)، والألباني في صحيح ابن ماجه (٢٣٨٨)، وأصله في مسلم (١٢١٨).

(٢) النهاية في غريب االحديث والأثر (رمل).

(٣) انظر: معجم معالم الحجاز (١٤٢/٥).

(٤) جزء من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) انظر: شرح صحيح البخارى لابن بطال (٢٨٥/٤).

(٦) انظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/٩).

(٧) انظر: التمهيد لابن عبد البر (٧٦/٢)، وعون المعبود (٢٤٠/٥).

(٨) انظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/٩).

(٩) انظر: فتح الباري لابن حجر (٥٠٣/٣).

(٣٢)

معجزة حسية خالدة

أيّد الله تبارك وتعالى أنبياءه ورسلَه بالمعجزات تصديقًا لهم كسفينة نوح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وناقة صالح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعصا موسى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجيش سليمان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغيرها من معجزات الأنبياء الحسية. وقد ذهبت تلك الآيات والمعجزات الحسية، ولم يبق منها شيءٌ؛ إلاّ آيات إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في بلد الله الحرام، ومنها: آية باقية خالدة، وهي مقام خليل الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ذلك الحجر الذي قام عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عليه، وهو يرفع قواعد البيت الحرام.

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: سمعتُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ الرُّكْنَ وَالْمَقَامَ يَاقُوتَتَانِ مِنْ يَاقُوتِ الْجَنَّةِ، طَمَسَ اللَّهُ نُورَهُمَا، وَلَوْ لَمْ يَطْمِسْ نُورَهُمَا؛ لأَضَاءَتَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»[1].

[راوي الحديث] عبد الله بن عمرو، هو: ابن العاص بن وائل السهمي، أبو محمد، أحد السابقين، وأحد العبادلة الفقهاء، أسلم قبل أبيه وكان فاضلًا حافظًا عالمًا، قرأ الكتاب، مات في ذي الحجة سنة ٦٣، وقيل: بمكة سنة ٦٧، وقيل غير ذلك[2].

[غريب الحديث] قوله: «الركن والمقام»، أي: الحجر الأسود ومقام إبراهيم.

وقوله: «ياقوت» من الجواهر، والمراد به الجنس، أي: يواقيت الجنة.

وقوله: «طمس»، أي: أذهب نورهما[3].

[كلمة الحديث] أفاد الحديث الشريف: أن الحجر الأسود والحَجَر الذي قام عليه إبراهيم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ من أحجار الجنَّة النفيسة والجواهر الكريمة، وأنّ الله تعالى أذهب نورهما لكي يصلح نزولهما من الجنَّة إلى الأرض؛ وإلاَّ لأضاتا ما بين المشرق والمغرب فيعدم الليل والنهار، ولآمن بهما كل برٍّ وفاجر.

وهما من آيات الله البيّنات في البيت الحرام، والمقام من أجلّ هذه الآيات البيِّنات، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران:٩٦-٩٧]، فوصف الله سبحانه وتعالى مقام إبراهيم وحدَه بأنّه آياتٍ بيِّنات؛ لاشتماله على آيات كثيرة؛ لأنَّ أثر القدم في الصّخرة

الصماء آية، وغوصه فيها الى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خاصة، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة آلاف السنين آية [٤].

وهذا المقام الكريم كان محل نداء الخليل للحجِّ، فقد قام عليه الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للنداء في الناس بالحج [٥]، وقد رفع الله تبارك وتعالى من شأنه فأمرَ سبحانه وتعالى أن يُتخذ مصلى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة:١٢٥]. وهذا هو الحدُّ الواجبُ في تعظيمه، وما سوى ذلك فإنه تعدٍ وتجاوز منهيٌ عنه، ولذلك حين رأى عبد الله بن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بعض ذلك أنكره بشدة، ونهى عنه؛ فروي عنه أنه رأى الناسَ يمسحون المقام، فنهاهم وأنكر عليهم، وقال: (إنكم لم تؤمروا بالمسح. وإنما أمرتم بالصَّلاة) [٦].

[فوائد الحديث]

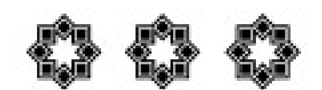
ومن فوائد هذا الحديث:

١- كون الحجر الأسود والمقام حجرين كريمين من أحجار الجنة.

٢- أن الله طمس نورهما؛ ولعل الحكمة أن يكون الإيمان بذلك غيبيًا لا عينيًا [٧].

٣- فضل البلد الحرام بأن فيها الحجر الأسود والمقام، وهما من الجنة، وبحسب النُّصوص الشّرعية الصّحيحة ليس في أي البلاد شيءٌ نزل من الجنة إلاّ في مكة.

٤- الغنيمة الباردة لأهل في مكة في التمتع برؤيـة أحجـار الجنـة بأيسر سبيل، وأسهل طريق.



---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢١٣)، والترمذي (٨٧٨) واللفظ له، وصححه ابن خزيمة (٤/٢١٩)، وابن حبان (٩/٢٤)، والحاكم في المستدرك (١/٦٢٦)، والألباني في صحيح الجامع (١٦٣٣).
(٢) انظر: الاستيعاب (٣ / ٩٥٧)، أسد الغابة (٣/٣٤٩)، الإصابة (٤/١٩٢).
(٣) انظر: تحفة الأحوذي (٣/٥٢٦).
(٤) انظر: تفسير الزمخشري (١/٤١٥).
(٥) انظر: تاريخ المسجد الحرام للدكتور: وصي الله عباس (٤٤٨، ٤٤٩).
(٦) أخرجه عبد الرزاق (٥ / ٤٩).
(٧) تحفة الأحوذي (٣/٥٢٦).

(٣٣)

في الاستعداد للرحلة الخالدة

لله المثلُ الأعلى سبحانه وتعالى، فإنَّ المرء يتجهَّز لحضور مجالس الملأ من الناس ليكون في أحسنِ حُلَّة، وأجمل صورة، وحينما أراد الله سبحانه وتعالى أن يُهيئ نبيَّه وخليله محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لملاقاته طهَّره بماء زمزم .

عـن أبي ذرّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحـدِّث أن رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـال: «فُرِجَ سَقْفِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَفَـرَجَ صَـدْرِي، ثُـمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَـةً وَإِيمَانًـا، فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَـذَ بِيَـدِي فَعَـرَجَ إِلَـى السَّـمَاءِ الدُّنْيَا ... » الحديث[1].

[غريب الحديث]

قوله: «فُرِج» بضم الفاء، أي: فُتح[2].

«ففرَجَ صدري» بفتح الفاء، أي: شقَّه[3].

«طست» بفتح الطاء، وسكون السِّين: إناءٌ معروفٌ، وإنَّما خصَّـه دون غيره من الأواني لأنه آلة الغسل عُرفًا[4].

«فأفرغها»، أي: صبَّها[5].

«أطبقه»، أي: غطَّاه، وجعله مطبقًا، وختم عليه[6].

[كلمة الحديث]

هذا الحديث يشير إلى فضيلة جليلة لمـاء زمـزمَ، حيـثُ اختُصَّ بغسل صدر النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعداداً لملاقاة الله تبـارك وتعـالى في سدرة المنتهى، حيث صلَّى بالأنبياء في بيت المقـدس، والتقـى بهم في طريقه إلى سدرة المنتهى، وهناك فرض الله عليـه الصـلوات الخمس، وتفضل الله سـبحانه وتعـالى بجعلـها خمسًـا في العـدد، وخمسين في الأجر تفضلًا منه سبحانه وتعالى وإحسانًا.

وقد ذكر أهل العلم أن غسل صدر النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بماء زمزم وقع أربع مرّات، في كل مرَّة يُشقُّ فيهـا صـدرُ الـنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويغسل بماء زمزم، ويكون الغسل بها في كل مـرّة لحكمـة مختلفـة تلمَّسها أهل العلم؛ فالمرّة الأولى كانـت وهـو صـغير عنـد حليمـة

السّعدية لإخراج حظِّ الشيطان من قلبه، والمرّة الثانية وهو ابن عشر سنين، والمرّة الثالثة عند مجيء جبريل له بالوحي في غار حراء لأجل تهيئته لتلقي الوحي، والمرّة الرابعة عند استعداده لمناجاة ربِّه بسدرة المنتهى[٧].

ومن بركة هذا الماء: أنّه الماء الذي غُسِّل به صدرُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل مرَّة.

[فوائد الحديث]

وفي الحديث فوائد:

١- فضل ماء زمزم حيث غُسِّل به صدره الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٨].

٢- فيه علامة من علامات النبوة، وهي شق صدره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وغسله بماء زمزم وملؤه بالحكمة والإيمان، فكل هذا من دلائل نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٩].

٣- حكمة غسل صدر النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بماء زمزم ليقوَى به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رؤية ملكوت السموات والأرض والجنة والنار[١٠].

[تطبيقات عملية]

ومن تطبيقات هذا الحديث العملية: أن أسماء بنت أبي بكر الصديق بعد أن غسَّلت ابنها عبد الله بن الزُّبير - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين - جعلت آخر غسلةٍ بماء زمزمَ لتجهزه للقاء ربِّه الغفور الرحيم[١١].

وقد عقَّب الفاكهيُّ على هذه القصة بقوله: (وأهل مكة على هذا إلى يومنا، يُغسِّلون موتاهم بماء زمزم، إذا فرغوا من غسل الميت وتنظيفه؛ جعلوا آخر غسلةٍ بماء زمزم تبركًا به)[١٢].

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

(٢) فتح الباري (١/ ٤٦٠).

(٣) عمدة القاري (٤/ ٤٢).

(٤) فتح الباري (١/ ٤٦٠).

(٥) فيض القدير (٤/ ٥٥٩).

(٦) المرجع نفسه.

(٧) قال ابن حجر (فتح الباري ١/ ٤٦٠): (ومحصله: أنَّ الشّقَّ الأولَ كان لاستعداده لنزع العلقة التي قيل له عندها هذا حظُّ الشَّيطان منكَ، والشّقُّ الثاني كان لاستعداده للتلقي الحاصل له في تلك الليلة. وقد روى الطيالسي والحارثُ في مسنديهما من حديث عائشة: أنَّ الشّقَّ وقع مرة أخرى عند مجيء جبريلَ له بالوحي في غار حراء، والله أعلم ومناسبته ظاهرة. ورُوي الشقُّ أيضًا وهو ابن عشر أو نحوها في قصةٍ له مع عبد المطلب، أخرجها أبو نعيم في الدَّلائل. ورُويَ مرةً أخرى خامسة، ولا تثبت). وانظر: الفتح (١٣/ ٤٨١).

(٨) انظر: إرشاد الساري شرح صحيح البخاري (١/ ٣٨٢).

(٩) انظر: المفهم للقرطبي (١/ ٣٨٢).

(١٠) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (١/ ٢٤٧).

(١١) أخبار مكة للفاكهي (٢/ ٤٨).

(١٢) المرجع نفسه.

(٣٤)

شبَّاعة العيال

تردد بكاء الطفل الرضيع في وادٍ غير ذي زرعٍ، فقد نفـد الطعـام وانعدم الماء، وجفَّ لأجل ذلك ضرعُ أمِّـه هـاجر عليهمـا الصـلاة والسلام، وانطلقت الأمُّ تسعى بين الجبلين لترى هـل مـن غيـاث؛ فإذا هي بالملَك الكريم عند ابنها يضربُ بعقبـه الأرضَ فيظهـر مـاءُ زمزم، فجعلت تشربُ من الماء، وصار لبنُها يُدِرُّ على صبيِّها[1].

فهذه زمزم شبَّاعةُ العيال[2]، غدت من أول ساعةٍ نبعت فيها طعامَ طُعم لهاجر وابنها إسماعيل عليهما الصّلاة والسّـلام، وهـي شَـبَاعة للناس كافَّة إلى يوم القيامة.

عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في خبر إسلامه - قال: قال: لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَتَى كُنْتَ هَاهُنَا؟». قال: قلت: قد كنت هاهنا مُنْذُ ثلاثين بين ليلة ويوم. قال: «فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكَ؟». قال: قلت: ما كان لي طعامٌ إلا ماءُ زمزم. فسمنْتُ حتى تكسّرتْ عُكَنُ بطني، وما أجد على كبدي سَخْفَةَ جوع. قال: «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ»[٣].

[غريب الحديث] قوله: «عُكَن»: جمع عُكْنَة، وهي: ما انطوى وانثنى من لحم البطن[٤].

«سَخفة» بفتح السين المهملة، وضمّها: رِقَّة الجوع، وضعفه، وهزاله[٥].

«إنها طعام طُعم»: الطُعْم بالضم: الطعام[٦]، أي: طعام يشبع منه، ويكف الجوع[٧].

[كلمة الحديث] في زمن اشتدَّ حصارُ قريشٍ على من يدخلون على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفَدَ أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مكة للقاء النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والبحث عنه، ومكثَ بها ثلاثين ليلة يحاول أن يصل إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون أن تعلم به قريش، وليس له طعامٌ في تلك الليالي الثلاثين سوى ماء زمزم، هداه الله إليها رحمةً بمن رحل لطلب الحقِّ، وصبر في ذلك، فهي آية من آيات الله البيِّنات في البيت الحرام: «**إنها مباركة، إنها طعام طعم**».

[فوائد الحديث] وفيه من الفوائد:

١- بركة ماء زمزم[٨].

٢- تأكيد بركة زمزم وأنّها مُشبعة بالتجربة والواقع من أبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٩]!

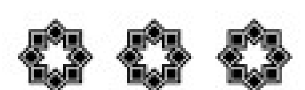
٣- فضل أبي ذرّ في بحثه عن الحقّ، وصبره عليه[١٠].

[تطبيقات عملية]

قال الإمام ابن القيم: (شاهدتُ من يتغذَّى به - أي: ماء زمزم - الأيام ذوات العدد قريبًا من نصف شهر وأكثر ولا يجد جوعًا، ويطوف مع الناس كأحدهم، وأخبرني أنه ربما بقي عليه أربعين يومًا)[١١].

وقال الشيخ عبد الرشيد إبراهيم التتاري أحد علماء التتار في العهد العثماني: (أمضيتُ أسابيع مكتفيًا بماء زمزم لسدِّ جوعي، وكانت تجربة فعلية قطعية، لا شكَّ فيها ولا شُبهة)[١٢].

ومن التطبيقات العملية المعاصرة لهذا الحديث: ما ذكره الأستاذ الأديبُ محمد سعيد الطنطاوي عن نفسه: أنّه بقي على ماء زمزم وهو معتكفٌ في الحرم المكي في العشر الأواخر من رمضان، ليس له طعام ولا شرابٌ سواه، وكان يُغنيه عن حاجته إلى الطعام، ولا يشعر بالجوع[١٣].



(١) أخرج القصة البخاريُّ في صحيحه (٣٣٦٤).

(٢) قال بن عباس: (كنَّا نسميها شبَّاعة، نعمُ العونُ على العيال). أخرجه عبد الرزاق (٥/١١٧). قال ابن الأثير (النهاية ٢/٤٤١): (سُمِّيت شبَّاعة؛ لأن ماءها يروي ويُشبع).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٧٣).

(٤) انظر: مشارق الأنوار للقاضي عياض (٢/٨٢).

(٥) انظر: غريب الحديث لابن الجوزي (١/٤٦٨).

(٦) فيض القدير (٣/٦٥١).

(٧) كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١/٢٣٦).

(٨) انظر: عمدة القاري (٩/٢٧٧).

(٩) انظر: فيض القدير (٤/٨٥).

(١٠) انظر: شرح النووي على مسلم (١٦/٣٠).

(١١) زاد المعاد (٤/٣٩٣).

(١٢) من كتابه في وصف رحلته إلى الحجِّ (العالم الإسلامي). انظر: فضائل ماء زمزم لسائد بكداش (١٠٥).

(١٣) المرجع السابق نفسه.

(٣٥)

التحفة المكية

التُّحفة بضم التَّاء وفتح الحاء: الشّيء الظّريف النّفيس، يُكْـرِم بـه الإنسانُ غيرَه[1]، وقد جرت عادة الناس حينما يكونون في سفرٍ أنهم يتحفون ذويهم وأهليهم بالشيء النفيس مـن تلـك البلـدان، ولـيس بمكة أنفسُ من ماء زمزم يتحفُ الناسُ به.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنّها كانت تحمِلُ من ماءِ زمزمَ، وتُخْبِرُ أن رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَحْمِلُه[2].

[كلمة الحديث] كلمة هذا الحديث تشير إلى أنّ أعظم هدية يتحف بها أهلُ مكة غيرَهم، ويحملها الحُجَّاج والعُمَّار والزُّوار من مكة إلى ذويهم وأحبابهم: هي ماء زمزم؛ الماء المبارك، طعام طعم، وشفاء سقم.

[فوائد الحديث] ومن فوائد الحديث:

١- احتفاء النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بماء زمزم بنقله إلى خارج مكة، وكذلك صحابته من بعده.

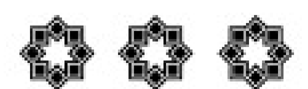
٢- أنّ ماء زمزم تحفة أهل مكة.

٣- فيه دليل على أنه لابأس بحمل ماء زمزم إلى المواطن الخارجة عن مكة[3].

[تطبيقات عملية] ومن تطبيقات هذا الحديث العملية: أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان إذا نزل به ضيفٌ أتحفه من ماء زمزم.

وقال عطاء بن أبي رباح: إن كعبًا[4] حجّ فحمل معه ست عشرة رَاوية أو اثنتي عشرة رَاوية من ماء زمزم إلى الشام[5].

ويُحدِّث بعضُ حُجَّاج إندونيسيا بعضَ شبابنا (شباب مكة في خدمتكم)[6]: أنَّهم يحملون ماء زمزم إلى بلادهم، فيقدمونه لضيوفهم في مثل (فناجين) القهوة عندنا، ويعدُّونه الغايةَ في الكرم.



---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف (١٦٤)، المصباح المنير (١/ ٧٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٩٦٣) واللفظ له، والبخاري في التأريخ (٣/١٨٩)، وصححه الحاكم (٣/ ٢٩٥)، والألباني في صحيح سنن الترمذي (٩٦٣).

(٣) نيل الأوطار (٥/ ١٤٩)، وتحفة الأحوذي (٤/ ٣٢).

(٤) لعله كعب الأحبار، وهو كعب بن ماتع الحميري اليماني، كان يهوديًا فأسلم بعد وفاة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقدم المدينة في خلافة عمر، وجالس الصحابة، وحدثهم عن كتب بني إسرائيل، وكان من العلماء، توفي في آخر خلافة عثمان. انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٨٩).

(٥) أخبار مكة للفاكهي (٢/ ٥٠).

(٦) برنامج (شباب مكة في خدمتكم) هو أحد برامج (مشروع تعظيم البلد الحرام) يقوم بتقديم خدمات متنوّعة للحجاج والمعتمرين داخل الحرم وخارجه.

(٣٦)

شفاء الأدواء

يفدُ إلى مكة - حرسها الله - طوال العام أعدادٌ كبيرة من الحُجَّاج والعُمَّار والزُّوار، وبخاصة في موسم الحجِّ، حيث المحفل الإسلامي العالمي الكبير من كل بقاع الأرض، وهذا التجمع مظنَّة اجتماع الأوبئة والأمراض المختلفة، ولكنهم في مأمن بإذن الله تبارك وتعالى من هذه الأوبئة والأمراض؛ لأنهم يجتمعون عند البيت الحرام حيث ماء زمزم آيةٌ من آياته البيِّنات، جعلها الله تبارك وتعالى **شفاء من الأسقام**.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خيرُ ماءٍ على وجْهِ الأرضِ ماءُ زمزمَ، فيه طعامٌ من الطُّعْمِ، وشِفاءٌ من السُّقْمِ»(١).

[غريب الحديث] طعام من الطعم: أي تشبع شاربها كما يشبعه الطعام(٢).

شفاء من السقم: أي شفاء من الأمراض إذا شرب بنية صالحة(٣).

[كلمة الحديث] الطعام والشراب والعافية نِعَمٌ لا يمكن أن تقوم حياة الناس بدونها، وكم يبذل البشر في تحصيل هذه النعم الثلاث، وقد تكفل الله تعالى بهذه النعم لأهل مكة، فقد أعطاهم زمزم، وجعل فيها كفاية عن الطعام والشّراب، وجعلها شفاء لمن طلب العافية، فكان أهل مكة يلمسون ذلك بجلاء، فيجدون في زمزم الطعامَ والدَّواء.

وهذه البركة التي في زمزم هي أولى الثمرات التي آتاها الله تبارك وتعالى خليلَه إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين دعا ربَّه ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

[فوائد الحديث] ومن فوائد الحديث:

١- أن ماء زمزم تشبع شاربها وتغنيه عن الطعام، وتكون شفاء لمن شربها بنية الشفاء، ولكن لابد من قوة اليقين وكمال التصديق في ذلك(٤).

٢- فضل ماء زمزم وبركتها(٥).

٣- فضل الله العظيم على أهل مكة أن جعل في بلدهم هذا الخير العظيم، فيجب عليهم شكرها.

٤- يستحب للمؤمن أن يشرب منها إذا تيسر له ذلك، ويجوز له الوضوء منها، ويجوز أيضًا الاستنجاء منها والغسل من الجنابة؛ إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فقد ثبت عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّ الماء نبع من بين أصابعه، ثم أخذ الناس حاجتهم من هذا الماء ليشربوا وليتوضئوا وليغسلوا ثيابهم وليستنجوا، كل هذا واقع، وماء زمزم إن لم يكن مثل الذي نبع من بين أصابع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن فوق ذلك، فكلاهما ماء شريف، فإذا جاز الوضوء والاغتسال والاستنجاء وغسل الثياب من الماء الذي نبع من بين أصابعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهكذا يجوز من ماء زمزم(٦).

[تطبيقات عملية]

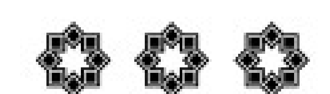
وللحديث تطبيقات عملية عن السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ؛ فقد كان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يستشفي به، فيقول عند شربه: (اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وشفاءً من كل داء)(٧).

وقال ابن القيم: وقد جربت أنا وغيرى من الاستشفاء بماء زمزم أمورًا عجيبة، واستشفيت به من عدة أمراض فبرأت بإذن الله(٨).

وقال أيضًا: ولقد مرَّ بي وقتٌ بمكة سقمتُ فيه، وفقدتُ الطبيبَ والدَّواء، فكنتُ أتعالجُ بها - أي بقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾[الفاتحة]-، آخذُ شربةً من ماء زمزم، وأقرؤها عليها مرارًا، ثم أشربه، فوجدتُ البرء التام، ثم صرتُ أعتمدُ ذلك في كثير من الأوجاع، فأنتفع به غاية الانتفاع(٩).

وشرب الحافظ العراقي ماء زمزم لداءٍ في باطنه، فشفي منه بغير دواء(١٠).

وقال الشيخ عبد الرشيد التتاري: ولقد جرَّبتُ زمزم كثيرًا لعـلاج أمراضٍ عديدة، وخاصة في أمراض المثانة، والأمراض الداخليـة، وأوجاع العين، وكانت كلها تجارب فعلية حاسمة[١١].



(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٧/١٥٠)، والطبراني في الكبير (١١/٩٨) واللفظ له، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/١٣٥): (رواته ثقات)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٢٢).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (١٦/٣٠).

(٣) فيض القدير (٣/٦٥١).

(٤) انظر: فيض القدير (٤/٨٥).

(٥) انظر: مجموع فتاوى ابن باز (٢٥/٢٧٨).

(٦) مجموع فتاوى ابن باز (٢٥/٢٧٩).

(٧) أخرجه الدارقطني في سننه (٢/٢٨٨)، والحاكم في المستدرك (١/٦٤٦)

(٨) زاد المعاد (٤/٣٩٣).

(٩) زاد المعاد (٤/١٧٨).

(١٠) شفاء الغرام (١/٤٦٣).

(١١) انظر: ماء زمزم لسائد بكداش (١١٨).

(٣٧)

لبيك ... حجّ الفقراء[١]

يقصد المسلمون هذا البيت من كل فجٍّ عميق رِجالًا ورُكبانًا شُعُثًا غُـبرًا، مفتقـرين إلى رحمـة الله، مجيـبين نـداء خليلـه إبـراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فيحطُّون عند البيت رِحالهم، وتطوفُ مـن حولـه أرواحهم وأفئدتهم، ويغتسلون من زمزم، فيحطُّ الله عنهم أوزارهم، ويصدرون عن البيت وقد رجعوا كيوم ولدتهم أمهاتهم.

هذه أحلامهم، وتلك أمانيهم حين يقصدون بيت الله الحـرام، مخلِّفين وراءهم الدُّنيا كلها، غير قاصدين سوى هذا الوادي المبارك بلد الله الحرام.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ؛ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[٢].

[غريب الحديث] قوله: «من حَجَّ»: الحجُّ: قصد بيت الله تعالى لأداء مناسك معينة في زمن معين[٣].

وقوله: «فلم يرفث»: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة[٤].

وقوله: «ولم يفسق»: الفسق: كل معصية لله تعالى[٥].

[كلمة الحديث] يفسِّر هذا الحديث: الحجَّ المبرور، وأنه الذي لا يخالطه رفثٌ ولا فسقٌ، فيرجع صاحبه كيوم ولدته أمُّه. والمتأمِّل في حثّ الحاجّ على الابتعاد عن الرفث والفسق والجدال في الحجِّ، يجد فيه معنًى جليلاً جدًّا، وهو: الحرص على انصراف الحاجِّ بكليِّته إلى ربِّه، وإقباله عليه جلّ في علاه، وقد فهم السَّلفُ هذا المعنى، فنجد أمثلة جليلة على إقبالهم على الله تبارك وتعالى وانشغالهم بذكره، كما روي عن مسروق رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، أنّه حجَّ فما افترش إلاّ جبهته ساجدًا لله تبارك وتعالى[٦].

[فوائد الحديث] وللحديث فوائد جليلة، منها:

١- فضل قصد البلد الحرام لأداء مناسك الحج.

٢- الترهيب بوجه عام من كل المعاصي التي تغضب الله عزَّ وجلَّ؛ لسوء نتائجها[٧].

٣- تأكيد النهي عن الفسق في الحج مع كونه ممنوعًا على كل

حال، وهو البُعد التامّ من الحاجّ عن الفسق(٨).

٤- أنّ المعاصي بكل أنواعها تنقص ثواب الأعمال الصّالحة، وقد تكون السبب في عدم قبولها عند الله ربِّ العالمين.

٥- البرُّ في الحج: خلوُّه من الرفث والفسوق والعصيان(٩).

٦- فضل الحج المبرور: أن يعود الحاج كما ولدته أمُّه مغفورًا له، كأن لم يذنب قط(١٠).

[تطبيقات عملية]

وممّا يعينُ على الحجِّ المبرور: الحرص على سنن الحجِّ، ولذلك كان السَّلف يحرصون على أداء مناسك الحجِّ كما أدّاها النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، مع تحري الورع والتقوى في الحجِّ.

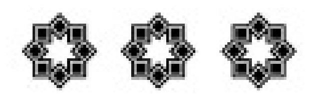
وكان الإمام المالكي ابن العربي يحرص على أداء سنن النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في الحجِّ، ويتأسف على تفويت الحاجِّ لها، حين رآهم يزهدون في المبيت بمنى يوم التروية ليلة عرفة، قال: مررتُ من ذات عرقٍ فألفيتُ الحاجَّ كله بائتًا في عرفة، وليس على من فعل ذلك شيءٌ، ولكنه تَرَكَ فعلَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولقد خاب في تركه(١١).

ومن عجيب ما يروى في التقوى بعامَّة قصة حدثت بمكة للإمام أحمد، فإنه رهنَ في دينٍ سطلاً له عند بقَّال بمكة، فلما أراد فكاكه أخرج البقالُ إليه سطلين، وقال: خذ أيّهما هو لك. فقال أحمد: أشكل عليَّ سطلي، فهو لك، والدراهمُ لك. فقال البقال: سطلك هذا، وأنا أردتُ أن أجربك. فقال: لا آخذه. ومضى، وترك السطل والمال جميعًا(١٢).

ومن النماذج الرّائعة في الافتقار إلى الله: ما ذكره إبراهيم بن عبد الله الخراساني، قال: حججتُ مع أبي سنة حجّ الرَّشيد، فإذا نحن بالرَّشيد وهو واقف حاسرٌ حافٍ على الحصباء، وقد رفع يديه وهو يرتعد ويبكي، ويقول: يا ربِّ، أنت أنت وأنا أنا، أنا العوّادُ إلى الذَّنب، وأنتَ العوّادُ إلى المغفرة، اغفر لي(١٣).

وقال عليٌّ بن ثابت: رأيت سفيانَ الثَّوريَّ في طريق مكة فقوَّمتُ كلَّ شيء عليه حتى نعليه، فما زادت على درهم وأربع دوانق(١٤).

وحجَّ أحدُ سلاطين الدُّنيا الظَّاهر بيبرس، فغدا كواحد من الناس، لا يحجبه أحدٌ، ولا يحرسه إلا الله، وهو منفرد يصلّي ويطوف ويسعى منفردًا، وغسّل البيت الحرام، وصار في وسط الخلائق، وكل من رمى إليه إحرامَه غسَّله وناوله إياه. وجلس على باب البيت، وأخذ بأيدي الناس ليطلعهم إلى البيت، فتعلق بعض العامة بإحرامه ليطلع فقطعه، وكاد يرمي السلطان إلى الأرض، وهو مستبشر بجميع ذلك، وعلق كسوة البيت بيده، وتودد إلى مَن بالحرمين من الصَّالحين(١٥).



(١) العنوان مستعار من رواية لطيفة للمفكر الإسلامي مالك بن نبي.
(٢) أخرجه البخاري (١٨١٩) واللفظ له، ومسلم (١٣٥٠).
(٣) التعريفات للجرجاني (١١١)، وانظر: مغني المحتاج للشربيني (١/٤٥٩)، وشرح منتهى الإرادات للبهوتي (١/٤٧٢).
(٤) النهاية في غريب الأثر (رفث).
(٥) مشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضي عياض (٢/١٦٣).
(٦) حلية الأولياء (٢/٩٥).
(٧) انظر: تحفة الأحوذي (٣/٤٥٥).
(٨) انظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/٣٠٣).
(٩) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (٩/١١٨).
(١٠) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤/١٩٠).
(١١) عارضة الأحوذي (٤/١٥٣).
(١٢) الرسالة القشيرية (٥٤).
(١٣) إتحاف الورى بأخبار أم القرى (٢/٢٢٢).
(١٤) حلية الأولياء (٦/٣٧٨).
(١٥) السلوك لمعرفة دول الملوك (١/١٩٦)، وإتحاف الورى بأخبار أم القرى (٣/٩٧).

(٣٨)

حنين الأفئدة[١]

استلقى سفيان بن عيينة على المشعر الحرام ليلة المزدلفة، فقال يخاطب صاحبًا له: قد وافيت هذا الموضع سبعين مرة، أقول في كل سنة: اللّهم لا تجعله آخر العهد من هذا المكان، وإني قد استحييت من الله من كثرة ما أسأله ذلك.

فرجع فتوفي في السّنة الدّاخلة[٢]، رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما كان أعظم شوقه لشعائر الله!!

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ، كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلاَّ الْجَنَّةُ»(٣).

[راوي الحديث] عبد الله بن مسعود، هو: أبو عبد الرحمن الهذلي، أسلم قديمًا، وكان يعرف بصاحب السِّواك، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة، وهاجر الهجرتين جميعًا، وصلى القبلتين، وشهد المشاهد مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، مات بالمدينة سنة ٣٢، ودفن بالبقيع(٤).

[غريب الحديث] قوله: «ينفيان الفقر»، أي: يزيلانه(٥).

«الكير»: زِقٌّ أو قِرْبة ينفخ فيها الحداد ليشعل النَّار(٦).

«خبث الحديد»: وسخه الذي يخرجه النار، فإنه في كلِّ مرَّة يخرج منه خبثٌ، فلا ينفي خبثه إلاَّ تتابع دخوله وتكرره(٧).

«الحجّة المبرورة»: هي التي لارياء فيها ولا سمعة ولا رفث ولا فسوق، وكانت النفقة فيها من مال طيِّب(٨).

[كلمة الحديث] يحثُّ الحبيبُ الشفيق صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمَّته على متابعة الحجِّ والعمرة، ويخبرُ أنّ فيها بركةً في الدُّنيا وبركة في الآخرة، فأمّا بركة الدُّنيا فسعة الرِّزق، وأمّا بركة الآخرة فمغفرة الذُّنوب، وما يرجو العبدُ بعدهما، وما سعيه في الدُّنيا إلى غيرهما؟!!

[فوائد الحديث] وللحديث فوائد:

١- فضل المتابعة بين الحج والعمرة(٩).

٢- أن المتابعة بين الحج والعمرة سبب لإزالة الفقر الظَّاهر

والباطن[١٠].

٣- أن المتابعة بينهما سبب لمحو الذنوب جميعًا[١١].

٤- بيان فضل الحج المبرور وهو دخول الجنة[١٢].

٥- في العبادة خير الدُّنيا والآخرة.

[تطبيقات عملية]

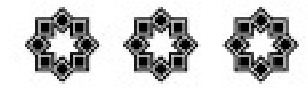
وقد فرح السّلف بهذا الحديث، وسعدوا به، وتواصوا به، فعن أبي غالب، قال: قال لي ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أَدْمِنِ الاختلافَ إلى هذا البيت؛ فإنك إن أدمنت الاختلافَ إلى هذا البيت لقيتَ اللهَ عزّ وجَلّ وأنت خفيفُ الظهر)[١٣].

ومن أمثلة عملهم بهذا الحديث في المتابعة بين الحجِّ والعمرة أنّ عطاء بن أبي رباح حجَّ سبعين حجة[١٤].

وقصد الأسود بن يزيد النخعي[١٥] البلد الحرام ثمانين مرّة ما بين حجة وعمرة[١٦].

وجعل النَّاسُ في جنازة طاووس[١٧] يترحمون عليه، ويقولون: رحم الله أبا عبدالرحمن، حجَّ أربعين حجة[١٨].

وحج محمد بن أبي عمر العدني صاحب المسند [١٩] سبعًا وسبعين حجة[٢٠].



(١) العنوان مستعار من كتيِّب [حنين الأفئدة] لفهد العمَّاري.

(٢) انظر: تاريخ بغداد (١٨٣-١٨٤).

(٣) أخرجه أحمد (١/٣٨٧)، والترمذي (٨١٠) واللفظ له، والنسائي (٢٦٣١)، وصححه ابن حبان (٩/٦)، والألباني في مشكاة المصابيح (٢٥٢٤).

(٤) انظر: الاستيعاب (٣/٩٨٨)، أسد الغابة (٣/٣٨٤)، الإصابة (٣/٢٨٧).

(٥) تحفة الأحوذي (٣/٤٥٤).

(٦) انظر: النهاية (كبر).

(٧) انظر: فيض القدير (١/٣٠٣).

(٨) انظر: الاستذكار لابن عبد البر (١١/٢٣٠).

(٩) انظر: شرح سنن النسائي للشيخ محمد علي آدم (٢٣/٣٢٤)

(١٠) المصدر السابق.

(١١) المصدر السابق.

(١٢) المصدر السابق.

(١٣) أخبار مكة للفاكهي (١/٤١١).

(١٤) صفة الصفوة (٢/٢١٤).

(١٥) الأسود بن يزيد بن قيس النخعي الكوفي، من كبار التابعين، كان ثقة عالمًا جليلاً، توفي سنة ٧٥.
انظر: سير أعلام النبلاء (٤/٥٠).

(١٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥١).

(١٧) طاووس بن كيسان اليماني ثم المكي، أحد الأئمة الأعلام، كان من سادات التابعين وعبادهم، ومعدود في فقهاء مكة، توفي سنة ١٠٥.
انظر: العقد الثمين (٥/٥٨).

(١٨) سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٥).

(١٩) محمد بن يحيى بن أبي عمر العدني المكي، شيخ الحرم، ثقة حافظ، وكان رجلاً صالحًا، توفي بمكة سنة ٢٤٣.
انظر: سير أعلام النبلاء (١٢/٩٦).

(٢٠) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٩٧).

(٣٩)

الوفد الكريم

كتب الخليفة الرّاشد عمر بن عبد العزيز إلى عروة بن محمد عامله على اليمن: إذا أتاك كتابي فاعزل مئة ألف دينار من مال اليمن، وادفعها إلى ذوي النّيّة والخير، ومُرهم فليقعدوا بأفواه الطُّرق إلى مكة، فلا يعدو عاريًا إلاَّ كسوه، ولا ماشيًا إلاَّ حملوه؛ فإني لا أعلم وجهًا أفضل من الحجّ[1].

عن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْحَاجُّ وَالْمُعْتَمِرُ وَفْدُ اللَّهِ، دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ، وَسَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ»(٢).

[غريب الحديث] قوله «وفد الله»: الوفد: الجماعة المختارة من القوم ليتقدموهم في لقي العظماء، والمصير إليهم في المهمات(٣).

وسبب تسميتهم وفد الله: أنهم يقصدون بسفرهم التقرب إلى الله(٤).

[كلمة الحديث] هذا الوفدُ الكريم من غازٍ في سبيل الله وحاجٍ إلى بيته الحرام ومعتمر يجيبُ الله دعاءهم، ويعطيهم مسألتهم، فمنزلتُهم عند الله تبارك وتعالى كريمة وجليلة.

وفي شأن الحجاج والمعتمرين يشير الحديث إلى حُسن الوفادة لهم، والعناية بهم، والتعرض لصالح دعائهم، فهم أهلٌ لكل مكرمة.

وفي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم»** الإشارة إلى قاعدة مهمة من قواعد الدِّين، وهي: **الجزاء من جنس العمل**.

وممّا تجدر الإشارة إليه: أنّ إقبال هذا الوفد الكريم على مكة، ووفودهم إليها مدعاة لكثرة الازدحام في الأماكن والمنافع، ممّا قد يسبب نوعًا من الضيقِ لأهلها وساكنيها، فعليهم أن يتذكروا أنّ هؤلاء جاءوا من كلّ فجٍّ عميقٍ يلبُّون نداء الله، استجابة لأمره، وطلبًا لرضوانه، والله سبحانه وتعالى يباهي بهم ملائكته على صعيد

عرفات[٥]، فيجب عليهم أن يفرحوا بهم، ويحسنوا إليهم.

[فوائد الحديث]

وللحديث فوائد:

١- أنّ الغازي في سبيل الله والحاجّ والمعتمر: وفد الله تعالى. وأن دعوتهم مستجابة، فيا فوز من أجاب الدعوة.

٢- سبب تخصيص هؤلاء الثلاثة بأنهم وفد الله هو أنهم قد تحملوا مشاق بدنية ومالية في سبيل ما خرجوا لأجله، بالإضافة إلى مشقة فراق الأهل والأولاد، والتعرض للأخطار[٦].

٣- تضمن الحديث توجيهًا لأهل مكة بالحرص على الربح الأخروي عند خدمة الحجاج والمعتمرين.

٤- فيه بيان فضل مكة بتسمية الوافد إليها بوفد الله.

٥- تسمية الحجاج والمعتمرين (وفد الله) لمعالجة دوافع التميز الدنيوية في تقديم الخدمة للحجاج.

[تطبيقات عملية]

وقد كان لهذا الحديث أثرٌ كبيرٌ في نفوس الذين يعظمُ في نفوسهم إكرام هذا الوفد الكريم والإحسان إليهم، يتقربون بذلك إلى الله تبارك وتعالى بصنع الجميل في ضيوفه ووفده، وبخاصّة أهل مكة الذين ورثوا هذا الأمر عن كبارهم وزعمائهم في الجاهلية والإسلام، فقد كان هاشم بن عبد مناف يقول لقريش إذا حضر الحج: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته، خصكم الله بذلك، وأكرمكم به ثم حفظ منكم ما حفظ جار من جاره، فأكرموا ضُيَّافه وزوَّار بيته يأتونكم شعثًا غبرًا من كل بلد، فكانت قريش

ترافد على ذلك حتى إن كان أهل البيت ليراسلون بالشيء اليسير رغبة في ذلك، فيقبل منهم لما يرجا لهم من منفعته[٧].

وقال قُصي بن كلاب مرة لقريش: يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل الحرم، وإن الحاج ضيفان الله وزوّار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام هذا الحج، حتى يصدروا عنكم. ففعلوا. فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجًا تخرجه قريش في كل موسم من أموالهم، فيدفعونه إلى قصي، فيصنعه طعامًا للحاج أيام الموسم بمكة ومنى، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه.

قال الأزرقي: وهي الرفادة؛ حتى قام الإسلام وهو في الإسلام إلى يومك هذا، وهو الطعام الذي يصنعه السلطان بمكة ومنى للناس حتى ينقضي الحاج[٨].

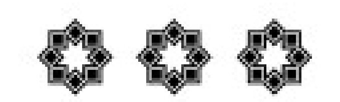
واتخذ معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا دارًا عُرفت بدار المراجل؛ لأنه جعل فيها قدورًا نُحاسية، كان يطبخ فيها طعام الحاج، وطعام شهر رمضان للمعتمرين[٩].

ومن ذلك: أنه توفي رجل وكان قد أوصى بمال في سبيل الله تعالى، فقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: آمرهم أن ينفقوه على قوم صالحين وعلى حجاج بيت الله العتيق، أولئك وفد الرحمن[١٠].

وتشهد المشاعر في هذه الأيّام أعمالاً جليلة في خدمة الحجَّاج على مستوى المؤسسات الحكومية والأهلية والخيرية، وعلى مستوى الأفراد من المسلمين من أهل مكة وغيرهم من أهل الخير الذين يفدون إليها حُجَّاجًا ومعتمرين يرجون فضلَ الله ومغفرته

ورضوانه، ويرجون بركة دعاء الحاجِّ لهم، يشرف على هذه الأعمال الجليلة لجنة مشكّلة من إمارة منطقة مكة المكرمة وفَّقها الله.

وهذا جانبٌ من المدنية الراقية القائمة في البلد الحرام على مرِّ التاريخ، وهي أحد معاني القيام التي جعلها الله للنّاس في الكعبة بيته الحرام.



---

(١) أخبار مكة للفاكهي (١/ ٤١٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٨٩٣) واللفظ له، والطبراني في المعجم الكبير(١٢/ ٤٢٢)، وصححه ابن حبان (١٠/ ٤٧٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢٣٣٩).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (١/١٨١).

(٤) انظر: مرعاة المفاتيح (٨/٤١٨).

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٤)، بإسناد لا بأس به.
انظر: تخريج شعيب الأرناؤوط لمسند أحمد (١١/ ٦٦٠).

(٦) انظر: مرعاة المفاتيح (٨/٤١٩).

(٧) أخبار مكة للأزرقي (١/ ١٩٤-١٩٥).

(٨) أخبار مكة للأزرقي (١/ ١٩٥).

(٩) أخبار مكة للفاكهي (٥/ ٣٣٧).

(١٠) المرجع نفسه (١/ ٤١٣).

(٤٠)

مأرز الإيمان

غُربة الدِّين في أول أمره كانت في قلَّة أهله، أمّا غربته في آخر الزمان ففي جهلهم بدينهم وضعف عملهم به؛ لأنهم يومئذٍ كثرة، ولكنهم «**كغثاء السيل**»[1].

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «إِنَّ الإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا كَانَ، وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا»[٢].

[غريب الحديث] قوله: «يأرز»: أي: ينضم ويجتمع بعضه إلى بعض[٣].

وقوله: «بين المسجدين»: أي: مسجدي: مكة، والمدينة[٤].

[كلمة الحديث] المراد بأن الإسلام يأرز بين المسجدين، أي: يجتمع أهله ما بينهما، وهي صورة الإسلام الأولى حيث كانت هجرة أهل الإسلام إلى المدينة فرارًا بدينهم، ولقاء النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأخذ عنه، وهي كائنة في آخر الزمان حيث تشتد الفتن وتكثر، فيجتمع أهل الإسلام بين المسجدين فراراً بدينهم، ووقايةً وصيانة له[٥].

[فوائد الحديث] ومن فوائد الحديث:

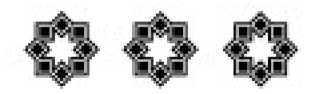
١- بيان غربة الإسلام في ابتداء ظهوره، وغربته في آخر الزمان.

٢- فضل ومكانة مكة شرفها الله.

٣- فضل ومكانة المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسّلام.

٤- التنبيه على عدم جواز دخول المسجدين إلا للمسلمين[٦].

٥- الإشارة إلى أنّ مبدأ الإيمان كان بمكّة وظهوره بالمدينة[٧].



(١) جزء من حديث أخرجه أحمد (٥/٢٧٨)، وأبو داود (٤٢٩٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٦).

(٣) النهاية لابن الأثير (أرز).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (٢/١٧٧).

(٥) انظر: تحفة الأحوذي (٧/٣١٩).

(٦) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤/٥٤٨).

(٧) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي (٢/١٢٨).

الفهرس